

جامعة محمد الخامس
كلية الآداب

سلسلة الرحلات (2)
زيارة (1)

أنس الفقير وعز الحقيير

للكاتب العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني
المتوفى سنة 810 هـ. 1407-1408 م

اعتنى بنشره وتهذيبه :

أدولف فور
أستاذ بكلية الآداب سابقاً

محمد الفاسي
رئيس الجامعة

منشورات :

المركز الجامعي للبحث العلمي

40

© 1965 - المركز الجامعي للبحث العلمي - الرباط
جميع الحقوق محفوظة للمحقق
رقم الايداع القانوني 65/148 - مطبعة اكدال، الرباط

جامعة محمد الخامس
كلية الآداب

سلسلة الرحلات (2)
زيارية (1)

أنس الفقير وعز الحقيير

لإبي العباس أحمد الخطيب الشيرازي قنفذ القسنطيني
الترقي سنة 810 هـ. 1407-1408 م

اعتنى بنشره وتمحيصه :

أدولف فور

أستاذ بكلية الآداب بالبقا

محمد الفاسي

رئيس الجامعة

منشورات :

المرکز الجامعي للبحث العلمي

تقديم

ذكرنا في تقديمنا لرحلة ابن عثمان الاكسير في فكاك الاسير التي صدرت منذ أمد قريب أن هذه المجموعة الجديدة ستضم ما أنتجه العرب وخصوصا المغاربة في فن الرحلة وقد برزوا فيه وتركوا لنا آثارا تزدهي بها الخزانة العربية . وقلنا اننا نلتزم ترتيبا لا في الزمن ولا في نوع الرحلة، فالاكسير من نوع الرحلة السفارية، وهذه الرحلة التي نصدرها الآن من نوع الرحلات الزيارية وهي التي يقصد صاحبها من سفره زيارة أضرحة الانبياء والاولياء أو ملاقاتة الاحياء من الصالحين والمتعبدين .

وأنس الفقير هذا من المؤلفات التي نالت شهرة وانتشارا وهو وان كان ليس على نمط الرحلات من الانواع الاخرى التي يذكر فيها مؤلفها ابتداء رحلته مع التنصيص على ذكر المراحل وتواريخ الدخول والخروج من المدن والقرى التي يمر بها فان القصد من السياحة التي قام بها ابن قنفذ كان هو زيارة اولياء وقته والوقوف على أضرحة الصالحين السابقين لزمانه وانما جعل اطار عمله الكلام على أشهر اولياء المغرب سيدي أبي مدين الغوث وأصحابه وتلامذته . فمن هذه الناحية عددها من نوع الرحلات وهو مع ذلك كثير ما يذكر تاريخ زيارته لاكثر المزارات التي شاهدها واذا تكررت هذه الزيارة ذكر في الغالب تواريخ ذلك بما ساعد على معرفة بعض ما يتعلق بحياته كما ستراه في المقدمة التي تلى هذا التقديم .

وعسى ان نسير بهذه المجموعة سيرا موفقا احياء لتراثنا الادبي في فن الرحلة الذي برز فيه المغاربة وانتجوا مؤلفات جليلة لا يزال أكثرها مخطوطا .

محمد الفاسي

رئيس جامعة محمد الخامس

مقدمة

ترجمة ابن قنفذ

ان القرن الثامن الهجري من العصور التي ازدهرت فيها العلوم والآداب في المغرب العربي ونبغ فيه رجال استفادوا من التراث الثقافي الذي خلفته الدولتان العظيمنتان المرابطية والموحدية . وان كانت الانتاجات التي ظهرت في أواخر هذا القرن الى السنين الاولى من القرن التاسع لا تضاهي انتاجات الحقبة الاولى منه .

ثم ان هذا العصر يمتاز بانتشار الافكار الصوفية واستيلائها على عقول المثقفين نتيجة للحركة التي بدأت أيام الموحدين وقد قوى هذا الاتجاه ضعف المسلمين بالاندلس وتغلب النصراني عليهم مما جعل العلماء يحاولون بث الروح الدينية في نفوس المسلمين وايقاد شعلتها من جديد ليتشبثوا بعقائدهم ويتحمسوا لها دفاعا عن بيضة الاسلام وردا للهجمات الاستعمارية الصليبية التي بدأت تعمل للاستيلاء على بلاد المغرب العربي .

كما يمتاز بتبادل ثقافي واسع النطاق بين مختلف نواحي المغرب العربي مما جعل علماء هذا العصر وأدباءه وكتابه يجوبون هذه الاقطار آخذين بعضهم عن بعض ومشتغلين في الوظائف العلمية والقضائية والحكومية رغم تشتت الوحدة السياسية التي كان عمل لها الموحدون بل بسبب هذه الوحدة التي وان انفصمت سياسيا فقد بقيت متمكنة من نفوس المفكرين وساعد عليها الاسلام الذي لا يفرق بين أبنائه لا بجنس ولا بوطن .

وان من الشخصيات التي تمثل هذا العصر خير تمثيل وأعني به أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ابن قنفذ القسنطيني مؤلف هذا الكتاب

الذي نشره اليوم في مجموعة الرحلات، فانه من حيث تقلبه في مختلف عواصم العلم المغربية ومن حيث سعة اطلاعه واتساع معارفه ومن حيث اهتمامه بالناحية الصوفية التي قدمنا أنها من أظهر مميزات هذا العصر يعطينا صورة كاملة عن رجل الفكر في المغرب العربي أيام المرينيين والحفصيين وبني زيان .

وهو أبو العباس أحمد بن حسن بن علي ابن الخطيب القسنطيني المشهور بابن قنفذ . ولد في عائلة علم وصلاح غالباً بمدينة قسنطينة حوالي سنة ٧٤٠ هـ (٢٣٣٩ - ١٣٤٠) . وكان والده وجده من خطبائها كما أن جده لأمه يوسف الملاري المتوفي سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ - ١٣٦٣ م) كان من مشاهير الصوفية والمرين الروحيين وقد كان له أثر عميق على حفيده أبي العباس كما يظهر ذلك في أنس الفقير . وكان أبوه اديبا مرموقا مع اتجاه صوفي كذلك مما جعل ابن قنفذ ينشأ في وسط يسوده الاهتمام بالعلم والادب والتصوف .

وقد بدأ دراسته على والده وعلى جده لأمه . ولما أنهى المرحلتين الاوليين من تعلمه توجه الى فاس للاخذ عن علماء جامعها الشهيرة وكان سنه اذاك حوالي التاسعة عشرة وقد ظهرت نجابته في كل العلوم التي درسها قبل سفره والتي أهلته للاستفادة من الاساتذة الكبار الذين تتلمذ لهم بفاس . وقد ترك لنا مترجموه قائمة بهؤلاء الاساتذة كما ذكر هو نفسه الكثيرين منهم في مؤلفاته خصوصا في أنس الفقير .

وأشهر هؤلاء الاساتذة الذين أخذ عنهم بفاس وبغيرها من مدن المغرب العربي هم :

١ - الامام أبو العباس أحمد بن قاسم القباب الفاسي (١) المتوفي سنة ٧٧٨ هـ . وقد ذكره في الانس وقال حضرت مجلسه في الحديث والفقه وأصول الدين . وذكر أن وفاته عام ٧٧٩ خلافا لما عند غيره ،

٢ - أبو عمران موسى العبدوسي الفاسي (١) المتوفي سنة ٧٧٦ وقد ذكره كذلك ابن قنفذ في أنس الفقير وقال : لازمته في المدونة والرسالة بفاس ثمان سنين .

٣ - أبو محمد عبد الله الوانغيلي الفاسي (٢) المتوفي سنة ٧٧٩ وقد ذكره في الانس وقال : وعليه ختمت الاصلين بفاس بمدرسة الوادي .

٤ - أبو زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائي الفاسي (٣) المتوفي سنة ٧٧٣ .

٥ - أبو القاسم محمد بن أحمد الحسيني السبتي (٤) المعروف بالشريف الغرناطي لأنه ولي قضاء غرناطة وتوفي بها سنة ٧٦٠ . ويظهر أن أخذ ابن قنفذ عنه كان بفاس في زيارة أخيرة لأبي القاسم لها قبل وفاته لأن ابن قنفذ لم يدخل المغرب الا في سنة ٧٥٩ .

٦ - محمد بن احمد ابن مرزوق التلمساني (٥) المعروف بابن مرزوق الجد وبالخطيب المتوفي بالقاهرة سنة ٧٨١ . وهو أحد رجالات هذا العصر علما وأدبا وجاها تولى عدة مناصب كالخطبة والقضاء والسفارة للمرينيين الى ملوك قشتالة بالاندلس، أخذ عنه ابن قنفذ الحديث وغيره .

٧ - أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني (٦) المتوفي سنة ٧٧١ .

٨ - الامام أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عرفة التونسي (٧) المتوفي سنة ٨٠٣ عن سن عالية .

-
- ١ - نيل الابتهاج ص . ٣٤٢ .
 - ٢ - نيل الابتهاج ص . ١٤٨ .
 - ٣ - جذوة الاقتباس ص . ٢٥٨ حيث جعل وفاته سنة ٧١ او ٧٢ .
 - ٤ - الديباج لابن فرحون ص . ٢٩٠ .
 - ٥ - نيل الابتهاج ص . ٢٦٧ .
 - ٦ - نيل الابتهاج ص . ٥٥ - ٢٦٤ .
 - ٧ - الديباج لابن فرحون ص . ٣٣٧ - ٣٤٠ وقد ترجم له وهو لا يزال حيا .

٩ - أبو علي حسن بن أبي القاسم ابن باديس القسنطيني (٩) المتوفي سنة ٧٨٧ ذكره ابن قنفذ في الانس .

١٠ - الصوفي الكبير محمد فتحا بن ابراهيم النفزي الفاسي (١٠) المعروف بابن عباد المتوفي سنة ٧٩٢ وهو شارح الحكم العطائية وقد أورد عنه ابن قنفذ في الانس معلومات قيمة .

وناهيك بهؤلاء الاعلام الذين زحرت بعلومهم وآدابهم المدن المغربية في هذا العصر المريني الثاني وقد بلغت فيه العلوم والاداب والفنون أوجها ببلاد المغرب .

ولم يكن الشاب ابن قنفذ عند مغادرته بلده يظن أنه سيقوم بالمغرب أكثر من السنين الضرورية للتحصيل وقد كانت تتراوح للنجباء من الطلاب ما بين أربع وست سنوات في الغالب ولكنه أعجب بالوسط العلمي الذي وجدته بالمغرب ولم يكتف بالتبحر في العلوم العقلية والنقلية من فقه وحديث ونحو وتاريخ ومنطق ورياضيات وفلك وطب وغير ذلك من معلومات ذلك العصر بل انكب على التعمق في أسرار التصوف والبحث عن رجاله وملاقاتهم . فمن ثم تولدت في ذهنه فكرة السياحة في ربوع المغرب ساعيا وراء الاتصال بالاولياء والصالحين الاحياء وزيارة أضرحة المشاهير منهم الذين طبعوا الفكر الديني المغربي بطابعهم الذي تحول بعد ذلك في انحراف ضار الى الطرقية التي استولت أيام الانحطاط الفكري على عقول المغاربة الى أن قضت عليها الحركة السلفية المباركة التي أعادت للروح الدينية الاسلامية صفاءها وبساطتها وسمو مبادئها .

وهكذا قضى ابن قنفذ بالمغرب قريبا من عشرين سنة انقطع في اولها الى أخذ العلم من ينايحه الى أن صار من العلماء المبرزين واسندت اليه

١ - نيل الابتهاج ص. ١٠٨ .

٢ - نيل الابتهاج ص. ٢٧٩ .

وظيفة القضاء كما يخبرنا عن نفسه (١) ونستفيد من هذا النص انه في سنة ٧٦٩ كان قاضيا بدكالة . فيكون عمره اذاك تسعا وعشرين سنة أي عشر سنوات بعد وصوله للمغرب .

ونراه يذكر دخوله لبعض نواحي المغرب في السنين الاولى من مقامه بفاس اخذا للعلم . فقد ذكر أنه التقى بشيخ من أحفاد أبي يعزى سنة ٧٦١ ولم يصل الى تاغية حيث ضريح مولاي أبي يعزى وبقي بينه وبينها نصف يوم . ويستفاد من هذا أنه كان يخرج من فاس أيام العطل للغاية التي كان يقصدها من ملاقاتة رجال التصوف وزيارة أضرحة الصالحين والبحث عن أخبارهم وخصوصا اتصالاتهم بأبي مدين الغوث دفين العباد الذي جعل من ترجمته اطارا لكتابه هذا والذي كانت مدرسته الصوفية مستحوذة على رجال هذا العصر بكل أقطار المغرب العربي ، وكانت اسرة ابن قنفذ سواء من جهة والده أو من جهة أمه من أنصار هذه المدرسة .

وفي سنة ٧٦٣ نجده بمدينة اسفي حيث وقف على قبر أبي محمد صالح الصوفي الشهير أحد الاقطاب الروحيين الذين طبعوا الحياة الدينية المغربية بما كان له من التلاميذ والاتباع .

أما مدينة سلا فقد دخلها مرارا وكان في كل مرة يقصد وليها الشهير أبا العباس احمد بن عاشر، وقد اخذ عنه وتلمذ له وكانت طريقته اتخاذ احياء علوم الدين للغزالي اماما «جعله بين عينيه واتبع ما فيه» على حد تعبير ابن قنفذ . وقد واطب على ملاقاته الى أن توفي سنة ٧٦٥ فكان بعد ذلك يتردد على سلا لزيارة قبره .

ونراه سنة ٧٦٩ بناحية دكالة حيث كان يعقد كل سنة شبه مؤتمر صوفي يقصده كل المنتمين لهذه الحركة . قال ابن قنفذ بهذه المناسبة «وكان الاجتماع في شهر ربيع الاول المبارك الاسعد سنة تسع وستين وسبعمائة

١ - ص . ٧١ من كتاب أنس الفقير هذا .

وحضره من لا يحصى عدده من الفضلاء ولقيت هنالك من ا خيارهم وعلمائهم
وصلحائهم ما شردت به عيني بسبب كثرتهم» (١) .

وفي سنة ٧٧٠ نراه بفاس يحضر دروس أبي محمد الهسكوري بمسجد
البليدة من مدينة فاس كما ذكر ذلك عن نفسه في آخر كتابه شرف الطالب .
ويذكر انه زار نواحي أخرى بدون تحديد تاريخ وذاك مثل سكساوة
ومدينتها المسماة القاهرة وأزمور وصفروا .

وفي سنة ٧٧٦ قرر الرجوع الى بلده . ووقف طبعاً بالعباد في
تلمسان لزيارة ضريح أبي مدين الغوث . وبعد رجوعه الى قسنطينة تولى
عدة خطط كالخطبة والافتاء والقضاء . وعكف على نشر العلم بالتدريس
والتأليف ولا شك أنه كان وضع بعض تأليفه بالمغرب أو بدأ بعضها وأتمها
ببلده واستمر على حالته المرضية هذه الى ان وافاه الأجل سنة ٨٠٩ او ٨١٠
على احد القولين في وفاته رحمه الله .

وقد كان كما قدمنا مشاركا في علوم كثيرة عقلية ونقلية ويظهر أثر
هذه المشاركة في المؤلفات التي وضعها وقد أورد لنا في آخر كتابه شرف
الطالب في اسنى المطالب قائمة بها نذكرها مرتبين لها ترتيبا جديدا اذ نذكر
أولا التأليف التي وصلتنا ثم نردفها بأسماء الكتب الاخرى التي لم ترد في
فهارس خزانات المخطوطات العالمية .

أولا - تأليف ابن قنفذ الموجودة :

١ - شرف الطالب في اسنى المطالب . وهو شرح للمنظومة المسماة
«القصيدة الغزلية في القاب الحديث» لابي العباس أحمد بن فرج الاشبيلي
وهي في مصطلح الحديث وقد نشرها بليدن (هولندة) المستشرق ريش
(Risch) مع شرحها لعز الدين ابن جماعة، ومع ترجمة وتعليق بالالمانية
سنة ١٨٨٥ . أما شرف الطالب فتوجد منه عدة مخطوطات بالخزانة
العامة بالرباط وبالخزانة الوطنية بباريس .

١ - ص . ٧١ من كتاب أنس الفقير هذا .

٢ - الوفيات وهو ذيل جعله لكتابه السابق ويحتوي على تراجم قصيرة جدا للعلماء وخصوصا المحدثين منهم مرتبة على القرون وعلى تواريخ وفياتهم ورغم صغر حجم هذا التويلف فقد نال انتشارا كبيرا لانه مرجع سهل لمعرفة تاريخ وفيات الاعلام من رجال العلم المسلمين لذلك أفرد على حدة، وتوجد منه نسخ مخطوطة كثيرة . وقد نشره مولوي محمد هدايت حسين بالهند سنة ١٩١١ .

٣ - تحفة الوارد في اختصاص الشرف من قبل الوالد . قال عنه ابن قنفذ في آخر كتاب شرف الطالب : «وهو غريب» منه مخطوط بالقاهرة.

٤ - الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية - وقد سمي ابن قنفذ هذا التاريخ بالفارسية نسبة للامير الحفصي الذي ألفه باسمه واهداه له وهو أبو فارس عبد العزيز وقد نشر على الحجر بباريس سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م) كما أن المستشرق الفرنسي شربونو Cherbonneau كان نشر بعض النبد من هذا التاريخ مع ترجمتها الى الفرنسية في الجريدة الاسيوية ما بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٢ . وتوجد نسخ مخطوطة منه في عدة خزانات منها الاسكوريال والخزانة الوطنية بباريس .

٥ - تسهيل المطالب في تعديل الكواكب . ويسمى أحيانا تيسير المطالب . منه مخطوط في الخزانة العامة بالرباط في مجموع مسجل تحت عدد ٥١٢ مكررة وهو الثاني منه . وقد ذكر عنه ابن قنفذ في قائمته الواردة في آخر شرف الطالب أنه «لم يهتد أحد الى مثله من المتقدمين» . كما توجد منه نسخة بالخزانة الملكية بالرباط تحت عدد ٥٢٦٢ .

٦ - تحصيل المناقب وتكميل المآرب . وهو شرح لكتابه السابق الذكر وتوجه منه كذلك نسخة مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط في نفس المجموع بعد تسهيل المطالب . وكلاهما في علم الفلك .

- ٧ - شرح منظومة ابن أبي الرجال المسماة «المنظومة الحسابية في القضايا النجومية» يوجد من هذا الشرح مخطوطان بالخزانة العامة بالرباط أحدهما مسجل تحت عدد ٤٦٦ والآخر تحت عدد ٥١٢ مكررة .
- ٨ - شرح الارجوزة التلمسانية في الفرائض . ذكر ابن أبي شنب في مقاله بمجلة هيسبريس حول الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية أن هذا الشرح يوجد باحدى الخزانات الخاصة بالجزائر .
- ٩ - طبقات علماء قسنطينة - ذكر ابن أبي شنب في نفس المقال حول الفارسية أن هذه الطبقات يظن وجودها باحدى خزانات قسنطينة الخاصة .
- ويلاحظ أن الكتب الثلاثة الاخيرة (٧ - ٨ - ٩) لم يرد ذكرها في القائمة التي أثبتها ابن قنفذ في آخر كتابه شرف الطالب . فلعله الفها بعد وضعه لكتاب شرف الطالب .
- ١٠ - أنس الفقير هذا - ولنا اليه رجعة
- ثانيا - تأليفه التي تعتبر الان ضائعة :
- ١ - تقريب الدلالة في شرح الرسالة «في أربعة أسفار» .
- ٢ - اللباب في اختصار الجلاب
- ٣ - معاونة الرائض في مبادئ الفرائض .
- ٤ - المعاني في بيان المباني . «وهو شرح لرجز في المنطق نظمه صاحبنا الفقيه الاستاذ الحافظ أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه أبي زيد عبد الرحمن المراكشي الضرير من أهل بلدنا» .
- ٥ - تلخيص العمل في شرح الجمل «في المنطق» .
- ٦ - أنوار السعادة في أصول العبادة .
- ٧ - شرح لقوله عليه السلام بني الاسلام على خمس «الحديث وفي كل قاعدة من الخمس أربعون حديثا وأربعون مسألة» .

- ٨ - هداية السالك في بيان الفية ابن مالك .
- ٩ - المسافة السنية في الرحلة العبدية . وهو اختصار لرحلة العبدري .
- ١٠ - شرح الثقات في علم الاوقات .
- ١١ - تسهيل العبارة في تعديل السيارة «واشتمل على أربعين بابا وستين فصلا» .
- ١٢ - أنس الحبيب عن عجز الطبيب .
- ١٣ - وقاية الموقت ونكاية المنكت .
- ١٤ - بسط الرموز في شرح الخزرجي
- ١٥ - القنفذية في ابطال الدلالة الفلكية .
- ١٦ - حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب . «وهو شرح تلخيص ابن البناء وقد سبقت اليه ابن زكرياء الاندلسي وكان أخذ من كتابي نسخة عند جوازه الى مدينة فاس بعد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة» .
- ١٧ - التمهيص في شرح التلخيص .
- ١٨ - الابراهيمية في مبادئ علم العربية .
- ١٩ - تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب . «قيدته زمان قرائتنا على شيخنا ابي محمد عبد الحق الهسكوري بمسجد البليدة من مدينة فاس وكان الابتداء أول سنة سبعين وسبعمائة» .
- ٢٠ - علامة النجاح في مبادئ الاصلاح .
- ٢١ - بقية (لعلها بغية) الفارض من الحساب والفرائض .
- ٢٢ - وسيلة الاسلام بالنبي عليه السلام «وهو من أجل الموضوعات في السيرة لاختصاره» .
- ٢٣ - تقييدات في مسائل مختصرة مختلفة .
- ويظهر من عناوين هذه الكتب كما قدمنا ما كان له من المشاركة في فنون متنوعة من التوحيد والفقيه الى الفلك والطب . وقد كان له ولوع

بفن الرحلة وذلك ما دفعه لاختصار الرحلة المغربية للعبدري . وهذا يدل على انتشار هذه الرحلة واقبال العلماء والمثقفين عليها حتى عاملوها معاملة الكتب الاساسية التي يعني بها بالشرح والتلخيص .

كتاب أنس الفقير

يعرف هذا الكتاب بأنس الفقير وعز الحقيير الا أن ابن قنفذ في القائمة السالفة الذكر يزيد بعد ذكره هذا العنوان قوله : «في رجال من أهل التصوف أبي مدين وأصحابه» ولا شك أن هذه العبارة قصد بها شرح موضوع الكتاب وليست من صميم الاسم والحقيقة كما قدمنا أن الكلام على أبي مدين الغوث اتخذه فقط كإطار لذكر سياحته بالمغرب وملاقاته لرجال التصوف والدليل على ذلك أنه رغم اعتماده في ترجمته وترجمة أصحابه على كتاب التشوف للتادلي حتى أننا في تعاليقنا نبهنا نحو ستين مرة على نقله عنه فإن المعلومات التي أثبتتها عن دفين العباد أقل مما يوجد في التشوف . لذلك يبقى أن المهم في هذا الكتاب هو ما شاهده بنفسه ! هو اتصالاته الشخصية برجال التصوف وذكر أخبارهم ومجاهداتهم والإشارة الى ما تمتاز به سيرة كل واحد منهم .

ويتجلى من هذا البحث الذي قام به ابن قنفذ عن الحياة الصوفية في المغرب في القرن الثامن الهجري أن الحركة التي بدأت أيام الموحدين والتي سجلها التادلي في كتابه التشوف (١) قد انتشرت أيام المرينيين وتمكنت وهذه الحركة هي التي انقلبت أيام السعديين وبعدهم الى حركة طرقية محرفة تعتمد على الكرامات والخوارق والخرافات وترتكز

١ - هذا الكتاب الاساسي لتاريخ الفكرة الصوفية في المغرب قد نشره الاستاذ فور في مجموعة معهد الابحاث العليا المغربية بالرباط سنة ١٩٥٨ .

على ما ينسبونه من ذلك لمولاي عبد السلام بن مشيش جاعلين منه أحد تلامذة أبي مدين الغوث مع ان ابن قنفذ لم يذكره مطلقا في كتابه وقد استقصى فيه أشياخ أبي مدين واخوانه وأصحابه على حد تعبيره.

مخطوطات أنس الفقير

قد اعتمدنا في نشرنا للانس على خمس نسخ نصفها في ما يلي :

النسخة الاولى : مخطوط الخزانة العامة بالرباط المسجل تحت رقم ٥٢٤ . وهو أقدم هذه المخطوطات وان كان لم يذكر فيها أي تاريخ الا أن ليفي بروفنسال في فهرسه لمخطوطات الخزانة العامة أكد أن تاريخها يرجع للقرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) وتحتوي على ٢١ ورقة مسطرتها ٢٩ سطرا وتارة ٣١ سطرا وأحيانا ٣٣ سطرا ومقياسها ٢٦ × ٢٠ وخطها دقيق واضح . ونشير اليها بحرفي را .

النسخة الثانية : مخطوط تفضل الاستاذ كولان وجعله تحت تصرفنا وهو يحتوي على ٥٨ ورقة مسطرته ٢٠ سطرا ومقياسه ٢٣ × ١٨ خط مغربي عادي . وهو غير مؤرخ . ورغم تشابهه بالمخطوط الاول فقد أفسدنا في تحقيق بعض المبهمات . ونشير اليه بحرف ك .

النسخة الثالثة : مخطوط الخزانة العامة المسجل تحت عدد ١٤٩٨ (ورقمه في فهرس الاستاذين الركراكي وعلوش ج ٢ هو ٢٢٣٢) ويوجد في مجموع من الورقة ١٢ ثانياة الى ورقة ٤٩ ثانياة مسطرته ٢٥ سطرا ومقياسه ٢٣ × ١٨ بخط دقيق عادي مائل الى اليمين وهو مؤرخ بالثالث عشر من صفر سنة ١٢٢٧ هـ (١٨٦٠ - ١٨٦١ م) نشير اليه بحرفي : رب . ويظهر أنه من طائفة غير طائفة المخطوطين الاولين .

النسخة الرابعة : مخطوط خزانة القرويين وقد اعتمدنا على صورة فوتوغرافية منه . وهو غير مؤرخ ويحتوي على ٢٤ ورقة مقياسه ٢٦ × ٢٠ ونشير اليه بحرف ق .

النسخة الخامسة : مخطوط من خزانة كاتبه الخاصة وهو يحتوي على ٥٦ ورقة مسطرته ٢٣ سطرا وفي الورقات الاخيرة صارت تزيد الى أن بلغت ٢٨ سطرا . مقياسه ٢٤ × ١٨ خط مغربي عادي وهو من طائفة مخطوط القرويين . وهو غير مؤرخ كذلك ونشير اليه بحرف ف .

وبعد انتهائنا من تحقيق هذا الكتاب وقفنا في الخزانة العامة على أربع نسخ أخرى من جملة كتب المتعاونين التي دخلت الخزانة بعد الاستقلال اثنتان من هذه النسخ من طائفة رب ! ف ! ق . واثنتان من طائفة را ! كـ . وليس بين كل هذه النسخ التسع فوارق كبيرة .

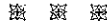
وينبغي قبل الختام أن نشير الى اسلوب ابن قنفذ في هذا الكتاب فاذا كان في الخطبة يستعمل السجع ويتأنق في كتابته فانه عند كلامه على مشاهداته وزياراته لمختلف النواحي التي تكلم عنها فانه يعتمد الى أسلوب حي بسيط والى لغة لا تخلو أحيانا من بعض الالفاظ العامية كالمخايد للوسادات والصابية للمحصول الزراعي ونحوهما بل عندما يحكي كلام بعض الصوفية ممن التقى بهم يأتي بعبارات تكاد تكون عامية كقوله مثلا : أعطني سرجك نركب بها (١) . وقد ذكر ابن أبي شنب في كلامه على كتاب الفارسية أنه يستعمل بعض العبارات عليها مسحة من لغة أهل قسنطينة والملاحظ في أنس الفقير ان العبارات القليلة التي تنتمي الى اللهجة العامية كتذكير بئر وتأنيث كساء وغير ذلك فانها من قبيل اللهجة المغربية كذلك الإماكان من قوله ص . ٩٨ الكاملة فانها لفظة عامية لا تعرف بالمغرب الاقصى وقد ارتأيت في تعليق على هذه اللفظة

١ - أنظر ص . ٥١ من هذه الطبعة .

أن معناها اما نوع من الطعام او اناء وقد وقفت بعد هذا في رحلة
التجاني على ما يلي : وأنشدني الحنفي لنفسه يذم بلده (يعني مهدية تونس)
ويصف أهلها بالبخل الابيات المشهورة : (طويل)

إذا حل بالمهدية الضيف نازلا يروم القرى زفت اليه الكوامل
إذا حسروا عنها المناديل أنشدت وما السيف الاغمده والجمائل (١)

وعلى هذا فان الكوامل وهي جمع كاملة تدل على نوع المائدة المسماة
ميدة بفاس، وهي مقعرة مستديرة تجعل بداخلها الصحون وتغطي بما
يسمى المكب أو بمنديل كما في البيت الثاني ولاشك أن اشتقاقها من
الكمال وهذا بعيد جدا عما ذهب اليه زميلي الاستاذ فور من أخذها من
Gamella التي هي اناء حقير من قصدير او نحوه يجعل فيه
طعام العساكر .



ورجأؤنا في الختام أن يفيد نشر هذا الكتاب الباحثين عن تاريخ
الحركة الصوفية لأنه من أقدم ما وصلنا من الكتب المؤلفة بالمغرب في
هذا الموضوع ويعتبر مع التشوف لابن الزياد التادلي وقد نشر كما
تقدمت الاشارة اليه وكتاب المقصد للبادسي وقد نشرت ترجمته الفرنسية
ولم يطبع النص العربي الى الآن من المصادر الاساسية عن تاريخ التصوف
بالمغرب ايام الموحدين والمرينيين (٢) .

١ - رحلة التجاني ص. ٣٧٠ من طبعة تونس سنة ١٣٧٨/١٩٥٨ .

٢ - يتعين التنبيه الى ان احد مواطني ابن قنفذ من اهل قسنطينة من
رجال القرن الحادي عشر يعرف كذلك بابن قنفذ وله رحلة تسمى
بادريسية الامصار والقرى وبلاد العرب الفها كذلك عن سياحته
بالمغرب لزيارة الاولياء والصالحين توجد منها مخطوطة
بالرباط ٩/١١٩٢ واخرى بالقاهرة ولعله أحد حفدة
صاحب أنس الفقير .

مراجع ترجمة ابن قنفذ

- ابن القاضي : الجذوة ٧٩
درة الحجال ج آ ص . ١ . ٦٠
احمد بابا : نيل الابتهاج ٥٧
القادري : نشر المثاني ج ١ ص . ٤
ابن مريم : البستان : ٣٠٨ - ٣٠٩
الحفناوى : تعريف الخلف : ٢٧ - ٣٢
الكتاني : فهرس الفهارس ج ٢ ص . ٢٤٣

BEN CHENEB. — *La Fârisiya ou les débuts de la dynastie hafside par Ibn Qonfod de Constantine*, « Hespéris », T. VIII, 1928, 1^{er} trimestre, pp. 37-39.

LÉVI-PROVENÇAL (E.). — *Les manuscrits arabes de Rabat*, Paris, 1921, pp. 132-134. — *Les Historiens des Chorfa*, Paris, 1922, p. 98, n. 2.

BASSET (R.). — *Recherches bibliographiques sur les sources de la Salouat el-Anfâs*, in « Recueil de Mémoires et de Textes publiés en l'honneur du XIV^e Congrès des Orientalistes », Alger, 1905, pp. 13-14, nos 20-21.

BROCKELMANN (F.). — *Supplément...*, II, p. 241.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

قال الشيخ الفقيه المدرس المفتي الخطيب القاضي الأعدل أبو العباس أحمد بن الخطيب ، رحمه الله تعالى :

الحمد لله الذي جعلنا من أمة محمد خاتم أنبيائه ؛ وصرف قلوبنا الى محبة أهل طابعته وأوليائه ؛ وحفظ وجودنا بوجودهم في أرضه وسمائه ؛ وجعلهم مراتب بحسب تفاوتهم في منازل أصفياؤه ؛ ووعدهم بالمزيد من فضله واحسانه ونعمائه ؛ و أمنهم بقوله تعالى « **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** » (١) وصلاته الثامة على سيدنا و مولانا محمد الهادي الى الايمان ، المخصوص بالصدق والحلم والاحسان ؛ المعروف بالعز المؤيد والاخلاق الحسان ، الذي ظهرت بركاته وأنواره في عالم الانسان ، وصحت كرامة من اتبعه صادقا بالفعل واللسان . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة الى يوم يُعْتَبُونَ .

وبعد فان الفقير الى عفوربه أحمد بن الخطيب ، وفقه الله ، ولطف به قال : رغب الي من يكرم علي من بعض اخواني في الدين في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين ، نفع الله به وبأمثاله المسلمين ؛

و ذلك في شهر رمضان المعظم من عام سبعة وثمانين وسبعمائة بقسنطينة المحروسة . فحركني ذلك الى ذكر هذا الشيخ والتعريف به ، وما وصل الي من خبره ونسبه ، مع مناسبة جلبتها هنا بسببه ؛ قاصدا في ذلك سبيل الاختصار ، على العادة في ذكر الأمثال والأخبار . وسميت هذا التقييد : **أنس الفقير وعز الحقير** . وقبل الخوض في ذلك أقدم هنا مقدمة قريبة تفيد الناظر صفة الولي وتحقيق أمره ، وان تباين سره وجهره ؛ مع لواحق ألحقتها ، وشواهد أثبتها .

فأما صفة الولي فقد دل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على صفة الأولياء فقال : « الذين اذا رؤوا ذكر الله . » (١) وفي هذا الحديث الشريف من الدلالة عليهم كفاية تامة . فأولياء الله تعالى الذين اذا رأهم المؤمن عظم ربه وذكر ذنبه . و يجب أن تلتمس بركاتهم ، وتغتنم دعواتهم . والأصل في ذلك الاقتداء بقول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، حين ذكر له أويس القرني : « ان استطعت ان يُغْفَرَ لك فافعل » ومعناه الحض على لقاءهم وطلب دعائهم ، لأنه لا يعادل أحد صاحب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . فان النظرة الواحدة من المؤمن في وجه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأولياء الله تعالى حسنة من حسناتهم لتبليغهم عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ما تصح به الافادة . والكمل في ميزان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لأنه الهادي والمبلغ عن الله . وشأن الاولياء أن يمنحهم الله تعالى علوما الهامية ، يكشف بها عما في القلوب حتى تكون حواسهم من سمع وبصر وشم مخالفة لحواس غيرهم . ولذلك منهم من يرى الملائكة ، ومنهم من يرى الجن ، ومنهم من يرى البلاد النائية ، ومنهم من يرى ما في السماوات ، ومنهم من يرى اللوح المحفوظ ، ومنهم ما يقرأ ما فيه . قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في

١ - راجع سنن ابن ماجة ، كتاب الزهد ، باب ٤ .

القواعد حين ذكر هذا : « فسبحان من أعزهم وأدناهم ، وأذل
آخرين وأقصاهم » .

واعلم أن من أمثال أوامر الله تعالى واجتنب نواهيهِ و رُزِقَ الخوف
من الله تعالى ، لا من خلقه ، واجتهد في طاعته ، جل وعلا ، وبحث عن
أمر كسبه ووقف عند ما حد له و رجع عن كل ما لا يعلم حكمه ، فهو
الصالح . و أعلى درجة من هذا حصول الورع التام ، وترك الطمع
وبغض الدنيا ومن تمسك بها ، و الفرار من دواعيها ومن أهلها ، و القناعة
باليسير منها . و درجات الصالحين تختلف بالترقي في ذلك على حسب
العناية من الله تعالى في المماليك .

واعلم أن الكرامة ليست من شرط حصول الولاية . فقد تحصل
الكرامة . لكن ان وقعت لولي (١) فهي دالة على صدق عبادته وعلو
مكانته بشرط اتباعه لحقيقة ما أمر به النبي عليه السلام . والا فهي
خذلان من الشيطان . و من الصالحين من يعلم بولايته ويعلم غيره بها .
و منهم من لا يعلم بنفسه ولا يعلم به . ومنهم من يعلم به ولا يعلم هو
بنفسه . وكذلك أصحاب الكرامة ، منهم من يعلم بكرامته ومنهم من
لا يعلم بها . والعالمون بها : منهم من يكتمها جهد استطاعته ، ومنهم من يظهرها
ويصرح بها . كان رجل بالمغرب يظهرها ويقول : أظهروا الكرامة ليرغب
في الطاعة . ولذلك منهم من يتزيا بزي المجانين ، ومنهم من يتزيا
بزي الصالحين على اختلاف آرائهم ومقاصدهم . لكن الذي يتزيا بزي
من يحتقر هو الذي اذا بحثت عن ظاهر أمره وجدته مشغولا بطاعة ربه
ثم يدري بما يظهر له . أما اذا كانت حالته في الباطن مساوية لحالته في
الظاهر أو أردأ فلا يوصف بالخير بوجه . وقد ظهر لك مما قررناه أنه
لايستدل على الولاية بالكرامة لاحتمال أن تكون من الشيطان . وانما
يستدل على صدق الكرامة بصحة الولاية . وقد تكون الكرامة نوعا

١ - ف : لكن ان وقعت من ولي ...

واحدًا في الشخص وقد تكون أنواعًا مختلفة وربما كانت مرارا . وقد شاهدت ذلك ولا ينكر الكرامة إلا معاند محروم سيء الاعتقاد كثير الانتقاد ولا بد أن أشير إلى ما رأيت .

قال الشيخ أبو يعزى رحمه الله : « ما لهؤلاء ينكرون الكرامة والله لو كنت قرب البحر لأريتهم المشي على الماء ! » (١) فلا يلتفت إلى البطال الغافل بوجه لأنه أمر علمه المحققون وركن إليه المتقون . فان قلت : إذا كانت الكرامة دالة على صحة العبادة فلا أصح من عبادة الصحابة فهل كانت لهم أو لأحدهم كرامة أم لا ؟ قلنا : قد قررنا في ما سبق أنها ليست بشرط الفضل . وأيضا فكرامتهم العلية ، شهادة الله لهم بالعدالة ، و شهادة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا يدركهم أحد في فضلهم . فان قلت : هذا صحيح ونحن نسأل عن هذه الخوارق وهل وقعت منهم أم لا ؟ ولانسأل عن استقامتهم لحصول العلم بها . قلنا : نعم ففي البخاري أن رجلين خرجا من عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في ليلة مظلمة فاذا النور بين أيديهما حتى تفرقا فتفرق النور معهما . (٢) وفي البخاري أن عمران بن حصين كانت تكلمه الملائكة . (٣) ونادى عمر بن الخطاب : « يا سارية الجبل ! » يحضه على الرجوع إلى الجبل حذرا من العدو وبينهما مسيرة أيام . فرآه وسمعه سارية فرجع إلى الجبل وسلم من العدو . (٤)

وأما اجابة دعائهم ، رضي الله عنهم ، فكثير معلوم . ولما حضرت الوفاة أبا بكر الصديق ، رضي الله عنه ، وجه إلى علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وقال له : « ان انا مت ، فاغسلوني ، وكفنوني وصلوا علي ، واحملوني إلى روضة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، و استأذنوا

١ - راجع التشوف ، ص ١٩٦ .

٢ - راجع التشوف ، ص ٣٥ .

٣ - التشوف ، ص ٣٧ .

٤ - التشوف ، ص ٥٠ .

علي في الدفن بازائه ، عليه السلام . فان فتح الباب من غير فعل
انسان فادفنوني هنالك والا فاحملوني الى البقيع . » ففعل ذلك علي ،
رضي الله عنه . وأتى به الى باب الروضة المباركة وقال : « يا رسول
الله هذا أبو بكر يستأذن في الدفن الى ازنائك . » ففتح الباب من غير
فاتح برا وكرامة لأبي بكر الصديق ، رضي الله عنه . وكان الشيطان
يهرب من عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فجا بعد فج . فأوصى ان
تستأذن عائشة في الدفن بازاء أبيها فأذنت . وظهر لي أن الحكمة في دفنهما
بازاء النبي ، صلى الله عليه وسلم ، دون غيرهما قربهما منه يوم القيامة .
فان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أول من تنشق عنه الأرض . وقد خرج
النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يوما من الأيام وفي يمينه أبو بكر وفي
شماله عمر . فقال عليه السلام : « هكذا أبعث يوم القيامة » ودخل
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بعد وفاته ، على عثمان بن عفان ،
رضي الله عنه ، وهو محصور في الدار ، من كوة في البيت ، في اليقظة
فقال : « حصروك يا عثمان ! » فقال : « نعم . » قال : « أعطشوك
يا عثمان ! » فقال : « نعم . » فقال : « تظفر عندنا يا عثمان . » فقال :
« نعم . » فأمر عثمان غلمانه بطرح السيوف حتى قتل . ورجعت
الشمس بعد مغيبها لعلي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، حتى صلى
العصر في وقتها لاشتغاله بخدمة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .
وبعث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أبا ذر يدعوه له عليا ، رضي
الله عنه . فوجد في بيته أرحاء تدور وليس معها أحد . فعجب من
ذلك . فقال له النبي ، صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر أما علمت
أن لله تعالى ملائكة سياحين في الأرض موكلين بمؤونة آل محمد » (١)
صلى الله عليه وسلم . وعطش الناس فأزال علي ، رضي الله عنه ، حجرا
نبع الماء من تحته . وكلمته ، رضي الله عنه ، الموتى . وقال رسول

الله ، صلى الله عليه وسلم ، للبراء بن مالك : « لو أقسمت على ربك لأبرك ! » وكذلك فعل حين التقى المسلمون بالمشركين فقال : « أقسمت عليك يا رب الا منحتنا أكتافهم وألحقني بالنبي ، صلى الله عليه وسلم ! » فمنحوا أكتافهم وقتل البراء (١) . ورأى خالد بن الوليد زقا فيه خمر فقال : « ما هذا ؟ » فقالوا له : « خل . » فقال : « اللهم اجعله خلا ! » فصار خلا (٢) . قلت وفيه كرامتان . وزار سلمان الفارسي صاحبا له في النزاع فوجد عنده ملك الموت . قال سلمان : « يا ملك الموت ارفق بصاحبنا . » فقال : « اني بكل مؤمن رفيق . » (٣) وسمع الحاضرون الصوت ولم يظهر لهم الشخص . وهذا الباب واسع جدا وكرامات الصحابة وفضائلهم أكثر من أن تحصى وقد امتلأت بذلك المجلدات . واذا ظهرت الكرامة لمن هو دونهم في الفضل قطعاً فأحرى لهم .

واعلم أنه جاء في الحديث : « من عادى وليا فقد بارزني بالمحاربة . » وقال ، عليه الصلاة والسلام : ان الله تعالى يقول : من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب . » (٤)

واعلم أن سوء الظن أساس الحجاب بين الناس والأولياء و حسن الظن فيه سلامة الدين وثبوت اليقين . وفي الحديث أن الله تعالى يقول : « لا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فأكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولئن سألتني لأعطينه ! » (٥) فان قلت : « هل تنقطع الكرامة بموت صاحبها أم

١ - التشوف ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

٢ - التشوف ، ص ٥٣ .

٣ - التشوف ، ص ٥٣ .

٤ - التشوف ، ص ١٩ . في ق : من حاد لي أولياء الله فقد آذن الله بالمحاربة .

٥ - التشوف ، ص ١٩ .

لا ؟ قلنا : لا تنقطع بموته ، بل تظهر . فكثير من لا يعرف في الحياة تشتهر بركاته بعد الممات ، وتلوح عند قبره البركات . ولقد حضرت عند ولي الله تعالى على التحقيق وهو الشيخ الحاج الزاهد الورع الصالح أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي (١) بمدينة سلا في عام ثلاثة و ستين وسبعمائة . سأله احد الفقراء عن هذا الفضل . فأنكر عليه سؤاله وقال : « لا تنقطع الكرامة بالموت ؛ أنظر الى السبتي ! » يشير الى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبي العباس السبتي المدفون بمراكش وما ظهرت عند قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات . سمعت بمراكش يهوديا يلهج ببركته وينادي بأسمه عند أمر أصابه لا مع المسلمين . فسألته عن سبب ذلك فأخبرني أنه وجد بركته في غير ما موطن . فسألته عما رأى له في أقرب وقت . فقال لي : « وحق ما أنزل على موسى بن عمران اني ما أذكر لك الا ما اتفق لي في قريب . وهو أني سریت بالليل مع قافلة في مفازة وبين يدي دابة . فعرجت لي وما شككت في قتلي وسلب مالي . فجلست و بكيت و بيني وبين الناس بعد . فقلت : يا سيدي أبا العباس خاطرك ! قال لي : والله ما أتممت الكلام الا وأهل القافلة أصابهم سبب و وفقوا وضربت دابتي وخف عرجها وزال واتصلت بالناس . » فقلت له : « لم لم تسلم ؟ » فقال : « حتى يريد الله تعالى . » وعجبت كون ذلك من يهودي . وهذه شهادة عدو في الدين . ولقد وقفت على قبره مرات وسألت الله تعالى في أشياء يسرها لي . منها سؤالي أن أكون ممن يشتغل بالعلم ويوصف به وأن ييسر علي فهم كتب عينتها . فيسر الله علي ذلك في أقرب مدة . وكان السبتي آية في أحواله ،

١ - المتوفى سنة ٧٦٤ أو ٧٦٥ - ١٣٦٢ أو ١٣٦٣ . راجع كتاب « تحفة الزائر ببعض مناقب سيدي الحاج احمد بن عاشر » . غير مطبوع ؛ مسجل في فهرس المخطوطات العربية ، الجزء الثاني ، رقم ٢٣٠٣ .

ما أدرك صحبته الا الخواص من الناس . وكان أصل مذهبه الحض
 على الصدقة . (١) وكان أمره عجبا في اجابة الدعاء بنزول المطر
 واختصاصه بمكان دون آخر . وقال لأصحابه : « أنا القطب . » وكان
 تفقه على أبي عبد الله الفخار صاحب القاضي عياض بسببته لأنها بلد
 القاضي عياض . وأما قبره فبمراكش وقفت عليه وله بركات وأنوار .
 وكان السبتى آية في المناظرة وأوذي باللسان كثيرا جدا فكان يصفح
 ويتجاوز . وسمع يوما منشدا يقول :

رَفَعُوا الْهَوَاجِجَ لِلرَّحِيلِ وَسَلَّمُوا

فقال هو ، رحمه الله :

رَفَعُوا الْأَنَامِلَ لِلصَّلَاةِ وَكَبَّرُوا

فَبَدَا الْتَخَشُّوعُ بِخَوْفِهِمْ يَتَرْتَم

وَبَدَتْ سَوَاجِبُ دَمْعِهِمْ مَسْبُوكَةً

خَوْفًا لِمَا قَدْ أَحْرَوْا أَوْ قَدَّمُوا

هَذِي صَلَاةُ الْمُتَّقِينَ وَغَيْرُهُمْ

نَائِي الْفُؤَادِ لِسَانُهُ يَتَكَلَّمُ (٢)

رأى عبد الرحمن بن يوسف الحسنى ، من أهل البيت الكريم ، النبى ،
 صلى الله عليه وسلم ، في النوم قال : فقلت : « يا رسول الله ! ما تقول في
 السبتى ؟ » وكنت سيء الاعتقاد فيه . قال : فقال لي بعد أن تبسم :
 « هو من السباق . » قال : فقلت : « بين لي ، يا رسول الله . » قال : « هو ممن
 يمر على الصراط كالبرق . » قال : فخرجت بعد الصبح فلقيني أبو

١ - راجع « تعبير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس »

لمحمد بن محمد المدعو بابن الموقت ، طبعة حجرية ، فاس

١٩١٨/١٣٣٦ : مجلة هسبيريس ، الجزء ٤٣ ، سنة ١٩٥٦ ،

ص ٤٤٨ .

٢ - من الكامل .

العباس فقال لي . « قل ما رأيت وما سمعت والله لا تركتك حتى تعرفني . »
فعرفته ، فصاح وقال : « كلمة الصفا من المصطفى . » وتوفي السبت ،
رحمه الله ، بمراكش سنة احدى وستمائة وكانت ولادته بسبته
عام أربعة وعشرين وخمسائة . فأعجبني اشارة ابن عاشر بهذا
المعنى أعني أن الكرامة لاتنقطع بالموت .

وكان ابن عاشر ، رحمه الله و نفع به ، فريدا في الورع ميسرا عليه في
ذلك أتم تيسير ، محفوظا من كل ما فيه شبهة ، كثير النفور من الناس
وخصوصا أصحاب الولاية في الأعمال . وخرجت علي يده تلامذة صلحاء أختيار .
وطريقته أنه جعل احياء علوم الدين بين عينيه واتبع ما فيه بجد
واجتهاد ، وصدق وانقياد . وكان الحجة في ذلك الطريق . وأول
اجتماعي به نفر عني فحبسته بيدي وهزرتة . فتبسم ووقف معي
وسألني عن نفسي ودعا لي باللطف . ثم ترددت اليه وكنت أقف معه
وطلبته فيما يطعمني . فاعتذر لي بالاقلال ثم قال لي : « أمهل ! »
ودخل فأخرج لي حبات من تين يابسة في يده اليمنى وغطاها
باليد اليسرى ودفعا الي وضحك معي وعجب الحاضرون من ليانته
وانشراحه معي في معاملته لأنه كان لا ينبسط الي أحد من الناس وحصل لي
بذلك فخر لا يدري قدره الا من حاول بعضه معه . وقصدني كثير
من الخواص يسألني عما انطوى عليه مجلسي في لقائه وما وقع من كلامه
وسؤاله ودعائه . وكان مما سألني عنه قال : « كيف الطريق ؟ » فأخبرته .
ثم سألني عن سلطان الوقت من يكون . فأعلمته باسمه ثم انقبض
كالنادم على ذلك وقد حاول ملك المغرب لما ارتحل اليه في عام سبعة وخمسين
وسبعمائة علي لقائه . فلم يقدر علي ذلك بوجه وحجبه الله عنه حتى تبعه يوم
جمعة من الجامع الأعظم علي قدمه لما نعت له والناس ينظرونه وهو
لم يره فرجع عنه . وقصده يوما أسير من المسلمين فنظر اليه وأخرج
له سكين البقل . سمعت أن الأسير باعها بالمزايدة في السوق بسبعة
عشر دينارا ذهبيا . ولم يكن قوته الا من نسخ العمدة في الحديث

كان يبيعها ولا يأخذ الا قيمتها . ولا زالت حالته وبركاته في الزيادة الى أن توفي ، رحمه الله ونفع به ، في سنة خمس وستين وسبعمائة ودفن داخل مدينة سلا . وزرت قبره هنالك مرارا .

فأنت ترى من هذه صفته يصرح أن الكرامة لا تنقطع بالموت ويحيل على ما هو معاين في السبتى ، رحمه الله . وسأله بعض الأخيار، بمحضري ، عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفة النصراني لوجود ذلك من بعضهم . فقال له : « المسلم الذي له هذه الدرجة يبريء من العاهة والنصراني لا . » ثم قال له : « وهل يبريء الفقير من العاهة ؟ » فقال له : « نعم . » ثم نظر يمينا وشمالا ليجد صاحب عاهة فيأتي بالعيان . فلم يجد أحدا وكأنه اغتاض لهذا السؤال ثم أخرج يده وقال : « يأتي لمن تعطل عن الحركة (١) . » فيجسسه بيده ويقيمه [وقد ذهب ألمه بعد أن حنا الى الأرض في الصفة .] (٢) ثم قال : « سأل بعضهم عن هذا وكان السائل نصرانيا في زي المسلم فقال له : الفرق بينهما سقوط الزنار من وسطك . قال : فسقط وفضحه الله وأسلم بسبب ذلك . » قلت : والأمر أجلى من أن يستدل عليه . ومن كرامات الأولياء حفظ حفتهم وقهر مرید الشر بهم (٣) وهو أمر معروف لا يفتقر الى بيان ، وقد وصف في غير ما موضع بالعيان ونختم هذه المقدمة التي صدرت بها هذا الكتاب بوصية في بيتين أنشدهما بعض الصالحين وهما :

١ - ك : نم جعل يدلني وقال : يأتي لمن تعطل عن الحركة .

٢ - ك : سقط ما بين منعقفين .

٣ - ك : حفظ متعلقاتهم وقهر من يناويهم .

قَدْ أَخَذَتِ النَّاسُ أُمُورًا فَلَا
تَعْمَلُ بِهَا إِنِّي أَمْرٌ نَاصِحٌ
فَمَا جِمَاعُ الْخَيْرِ إِلَّا الَّذِي
كَانَ عَلَيْهِ السَّلْفُ الصَّالِحُ (١)

ولي في هذا المعنى :

أَلْفَقَرُّ إِنْ فَكَّرْتَ فِيهِ رَأَيْتَهُ
قَدْ دَارَ بَيْنَ قَوَاعِدِ مُتَتَالِيَةٍ
فَأَطْلُبُهُ فِي الْقُرْآنِ أَوْ فِي سُنَّةِ
وَأَعْضُدُهُ بِالْإِجْمَاعِ وَأَتْرُكُ تَالِيَهُ (٢)

ولنرجع الى ما كان القصد بسببه في ذكر شيخنا والتعريف به
فأقول : ان الشيخ العارف المحقق الواحد القطب أبا مدين ، نفع الله به ،
هو شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي الأصل من أحواز
اشبيلية (٣) . كان زاهدا في الدنيا عارفا بالله تعالى وخاض بحارا
من الأحوال ، ونال من المعارف الربانية الآمال . ومقامه الخاص به
الذي لا يلحقه فيه أحد التوكل على الله تعالى . وكان له بسط وقبض .
فبسطه بالعلم ، وقبضه بالمراقبة . ولما توفي أبوه كلفه اخوته
رعي مواشيهم لأنه أصغرهم سنا . فكان يخرج بها الى المرعى فاذا رأى
مصليا أو قارئاً دنا منه ووجد في نفسه غما عظيما من كونه لا يفعل
مثله . فيحدث اخوته ما يجده فينهونه ويأمرونه بالاشتغال بالرعاية
حتى اشتد غمه لذلك وقويت عزيمته على سلوك هذه المسالك . فترك
الماشية وفر طالبا لما مالت اليه نفسه بتوفيق الله . فرده أحد

١ - من السريع .

٢ - من الكامل .

٣ - راجع ترجمة أبي مدين في التشوف ، ص ٣١٦ .

اخوته وهدده بالحربة ثم قوي عزمه وفر بالليل فأدركه بعض اخوته وسل عليه سيفه وضربه فتلقى الضربة بعود كان بيده فتكسر السيف أجزاء . فعجب أخوه من ذلك وقال له : « يا أخي اذهب حيث شئت . » قال الشيخ أبو مدين : « فسرت حتى وصلت البحر ووجدت خيمة فيها ناس . فخرج الي منها شيخ فسألني عن أمري فأخبرته . فجلست عنده فاذا جعت رمى بخيط في طرفه مسمار فأخذ حوتا ويطعمه لي مشويا . ثم قال لي : انصرف الي الحاضرة حتى تتعلم العلم ؛ فان الله تعالى لا يعبد الا بالعلم . قال : فخرجت الي العدو ونزلت بطنجة وانصرفت من هنالك الي سبتة فاحترفت مع الصيادين طلبا للعيش ثم قلت : ما لهذا قصدت . فانصرفت من هنالك الي مراکش وقصدت جماعة الأندلس . فكتبوا اسمي في زمام الأجناد . فقلت لبعضهم : انما جئت للقراءة . فقال لي : عليك بفاس . فسرت اليها ولازمت جامعها ورغبت من علمني أحكام الوضوء والصلاة ثم سألت عن مجالس العلماء فسرت اليها مجلسا بعد مجلس . وأنا لا يثبت في قلبي شيء مما أسمعه من المدرسين الي أن جلست الي شيخ كلما تكلم بكلام ثبت في قلبي وحفظته . فقلت : من هذا الشيخ ؟ فقبل لي : أبو الحسن ابن حرزهم . فلما فرغ دنوت منه وقلت له : حضرت مجالس كثيرة فلم أثبت على ما يقال ؛ وأنت كل ما سمعت منك حفظته . فقال لي : هم يتكلمون بأطراف ألسنتهم فلا يجاوز كلامهم الآذان وأنا قصدت الله بكلامي فخرج من القلب . فلازمته . »

قلت : وهذا الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل بن محمد ابن عبد الله بن حرزهم (١) . ولد بفاس ونشأ بها وكان فيها من كبار الفقهاء و كان زاهدا في الدنيا سالكا سبيل أهل التصوف ، ذا كرامات و فراسات . وكان والده من كبار الصالحين وكذلك أخوه . وحكوا عن

١ - التشوف ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

أبي الحسن هذه الحكاية المشهورة وذلك أنه قال : « طالعت كتاب الأحياء للغزالي في بيت مدة من عام كامل ؛ فجردت المسائل التي تنتقد عليه فرأيت في نومي قائلاً يقول : جردوه واضربوه حد الفرية ! فجردت وضربت ثمانين سوطاً . ثم استيقظت فوجدت الألم في ظهري وجعلت أقلبه وتبت إلى الله تعالى من ذلك وتأملت المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة . » وكان يقول : « ان رب العزة أمّني ؛ اني رأيت في النوم فقال لي : سل حاجتك . فقلت : يا رب أسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة . فقال : قد فعلت . » (١) وارتحل آخر إلى المشرق ولازم إمامة مسجد الشام سنين عدة . فقدم الغزالي مع تلامذته ونزل في ذلك المسجد وكانت فيه دالية ظهر فيها الحصرم . فقال التلامذة للشيخ : « ياسيدنا اشتهينا حصرمة . » فقال لهم : « اسألوا إمام المسجد عن هذه الدالية من حبسها وعلى من حبست . » فجازوا إليه وسألوه فقال لهم : « لي هنا منذ كذا وكذا ما سألت عنها قط ولا أكلت منها قط . » ورجعوا إلى الغزالي فأعلموه . فقال لهم : « هذا مغربي أم هذا المسجد ، فما سأل عنها ولا أكل منها وأنتم من يومكم سألتم عنها وأردتم الأكل منها . » فوبخهم على ذلك . (٢)

وكان الشيخ أبو الحسن ابن حرزهم لا بد له من الحمام في كل يوم . فلما كان اليوم الذي توفي فيه قال لخدمة الحمام : « اليوم بقي لكم وتستريحون مني . » فلما خرج من الحمام دخل منزله واستلقى على ظهره فجاء بعض تلامذته ليوقظه فوجده ميتاً . وله كرامات مشهورة .

١ - التشوف ، ص ١٥٠ .

٢ - لقد نقل ابن قنفذ هذه الحكاية عن التشوف ، غير أنه وهم في نقله ، إذ الرجل الذي كان إماماً بمسجد من مساجد الشام هو أبو محمد صالح بن محمد بن عبد الله بن حرزهم ، عم أبي الحسن ابن حرزهم . راجع التشوف ، ص ٧١ .

وكانت وفاته ، رحمه الله ، في عام تسعة وخمسين وخمسمائة ودفن خارج باب الفتوح من أبواب فاس . وقد زرت قبره مرارا كثيرة زمان اقامتي بالمغرب . وأول زيارتي له عام تسعة وخمسين وسبعمائة . وللوقوف على قبره بركات . فلازمه الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه ، وقرأ عليه رعاية المحاسبي وفهمها له . (١)

ولقي بفاس الأشياخ والأخيار والفضلاء وقرأ على الشيخ الفقيه أبي الحسن ابن غالب (٢) فقيه فاس كتاب السنن لأبي عيسى الترمذي وأقام بفاس مدة طويلة لطلب العلم . قال الشيخ أبو مدين : « وكنت اذا سمعت تفسير آية من كتاب الله تعالى ، ومعه حديث واحد من أحاديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قنعت بهما وانصرفت الى خارج فاس لموضع خال من الناس اتخذته مأوى للعمل بما يفتح علي من الآيات والحديث ثم أعود الى فاس فأخذ آية وحديثا وأخرج الى خلوتي . قال : وكنت اذا جلست بذلك المكان تأتيني غزاة تأوي الي تشمني من قرني الي قدمي وتؤنسني . فذهبت يوما ، كان يوم الخميس ، الى فاس وبت بها يوم الجمعة فلقيني رجل من الأندلس أعرفه فسلم علي وكان عندي ثوب مودع عند رجل من الأصحاب . فسألته عنه وقلت له : بعه لي فاني أريد أن أدفع ثمنه لضيف وصل الي من الأندلس . فباعه بعشرة دراهم ودفعها الي . فطلبت الرجل فلم أجده فربطت الدراهم في خرقة وجعلتها في مئزري وخرجت الي خلوتي على عادتي وكانت في طريقي عمارة فيها جملة كلاب ما رأيت أذى منهم قط بل كانوا يدورون بي ويصبصون لي . فلما قربت من القرية خرجوا الي واشتد نبههم حتى خرج أهل القرية وحالوا بيني

١ - التشوف ، ص ٣١٩ .

٢ - هو أبو الحسن علي بن خلف بن غالب القرشي ، توفي عام ثمانية وستين وخمسمائة . راجع التشوف ، ص ٢١١ و ص ٣١٩ .

وبينهم . ثم وصلت الى خلوتي فجاءت الغزالة فنظرتني نظرا منكرا ثم صارت تنطحني بقرونها وأنا أتقيها بيدي . ففكرت في أمري وما رأيت من نباح الكلاب علي و نطح الغزالة . فقلت : ان ذلك من أجل الدراهم التي معي . فحللت الصرة ورميتها فسكنت الغزالة وركنت الي علي عاداتها . فلما انصرفت الي فاس أخذت الصرة وحملتها معي . فلما دخلت فاسا لقيت الرجل الأندلسي فدفعته لها ثم خرجت الي موضعي ومررت بالقرية فبصبصت لي الكلاب علي عاداتها فجاءتني الغزالة وشممتني من قرني الي قدمي وركنت الي علي عاداتها . (١)

قال الشيخ أبو مدين : « وكنت أيام اقامتي بفاس أزور الشيخ أبا يعزى وأول زيارتي له أني رأيت جماعة تحدثوا علي كراماته ونووا زيارته . فذهبت معهم اليه . فلما وصلنا أقبل علي القوم دوني وأحضر الطعام فمنعني من الاكل معهم فاذا حضر الطعام وقمت اليه انتهرني . فأقول في نفسي : هؤلاء من هذه العدو أقبل عليهم وأنا أندلسي . فأقمت كذلك ثلاثة أيام وقد أجهدني الجوع والذل ثم قلت في نفسي : اذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في ذلك المكان . فقام ومرغت وجهي ، فلما رفعت رأسي لم أبصر شيئا . فقلت : عميت فبقيت طول ليلي باكيا متضرعا فلما أصبح استدعاني وقال لي : اقرب يا أندلسي ! فدنوت منه وقمت لا أبصر شيئا . فمسح بيده علي عيني فعاد بصري ثم مسح بيده علي صدري وقال للحاضرين : هذا يكون منه كذا وكذا . فاستأذنته في الانصراف فأذن لي وقال لي : ترى الأسد يعترضك في الطريق فلا يروعك فان اشتد خوفك فقل له : بحرمة أبي يعزى اذهب عني ! ثم تجد ثلاثة من اللصوص عند شجرة فتعظهم فيتوب اثنان ويضرب عنق الثالث ويصلب علي تلك الشجرة . » قال الشيخ ابو مدين ، رضي الله عنه : « فلقيني

الأسد في الطريق فأقسمت عليه بأبي يعزى فتنحى عني وخرج عن الطريق . فلما خرجت من الشعب تعرض لي ثلاثة من الرجال فوعظتهم فآثر كلامي في قلب اثنين منهم فانصرفا وعاد الثالث الى الشجرة فسمع به بعض الولاة فأخذه وضرب عنقه وصلبه على تلك الشجرة . « (١) وكان الشيخ أبو مدين يكرر زيارة الشيخ أبي يعزى وكان أبو يعزى يقول : « أشك (٢) أركاز الأندلسي . » ومعناه : أشك الرجل الأندلسي . فقال أبو مدين من بركاته وشاهد العجائب من كراماته . وكان يتردد الى مجالس العلماء في مدينة فاس وخصوصا مجالس الشيخ أبي الحسن ابن حرزهم حتى فتح الله عليه بالمواهب العلية والأسرار الربانية وحقق التوجه والعمل وبلغ في مقامه الأمل . قال محيي الدين بن العربي الحاتمي الطائي : « لم يمت حتى تقطب قبل أن يغرغر بثلاث ساعات . » والقضية للعارف منتهى آماله وغاية مناله . ثم انصرف مشرقا وتردد في بلاد افريقية واستوطن في الآخر بجاية وكثرت تلامذته وظهرت بركاته عليهم . يقال انه خرج على يده الف تلميذ وظهرت لكل واحد منهم الكرامة والبركة . لذلك يقال له شيخ مشايخ الاسلام وامام العباد والزهاد . قال بعض الصالحين : « رأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في النوم ومعه أبو مدين وأبو حامد ثم سأل أبو حامد أبا مدين ، رضي الله عنهما ، بين يدي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : ماروح الروح ؟ فقال له أبو مدين : المعرفة . قال : فما روح المعرفة ؟ قال : اللذة . قال : فما روح اللذة ؟ قال : نظرة اليه . ثم غشيهم نور عظيم فأخذتهم الملائكة وصعدت بهم حتى غابوا في الهواء فقلت : هذه درجة عليا ومكانة سنية . »

وكان الشيخ أبو مدين ، رضي الله عليه ، يلجأ اليه في حل

١ - التشوف ، ص ٣١٨ .

٢ - كذا في المخطوطات . غير معربة ومعناها : تلف وكاف أركاز معقودة .

المشكلات . فيأتي بأبدع التأويلات . ذكر بعضهم أنه وقع نزاع بين الطلبة في قوله ، صلى الله عليه وسلم : « اذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة » . فتردد الكلام بينهم في أن مؤمنين اذا ماتا استحقا الجنة بكاملها . فصاروا الى مجلس الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، ليطلعوا على ما عنده في المسألة . فوجدوه جالسا يقرأ رسالة القشيري . فلما استقر بهم الجلوس سكت الشيخ أبو مدين عن الكلام الذي كان فيه وقال : « نزيل الاشكال عن أصحابنا من غير أن يسألوه . » فقال لهم : « انما أراد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، نصف جنته لأن لكل مؤمن جنة تخصه ؛ فاذا مات أعطي نصف جنته وبعد الحشر يعطى النصف الثاني . » ثم زاد في هذا الكلام وتكلم كيف يكشف للمؤمن عن مقعده في الجنة وتنعمه بتلك الرؤية واتصال الأرواح وغير ذلك مما يناسب هذا الكلام وفي هذا من العلم ما لا ينتهي الى حقيقته الا أهل الصفا وأصحاب المواهب كالشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، وجعلنا الله من حزبه بفضله .

وكان الشيخ ، رضي الله عنه ، مشغولا بالتربية و الافادة والتعليم والعبادة والاقبال على الله تعالى في الظاهر والباطن . وقد ألف بعض الفضلاء في كراماته . وله بالنسبة لكل انسان كلمات (١) حسان في أصول هذا الشأن بالكلام العجيب والمنزع الغريب . وأنا أورد من ذلك ما لا بد منه مما صححته بالواسطة عنه . وكل كلمة من كلامه اذا اقتصر المقتصر عليها فتح عليه بسببها ونال المؤمن من طلبها وحصل له المرام ويميز بالفضل بين العباد و لولا الاطالة لبينت لك كل كلمة على شواهدا وظهور فوائدها بطريق الصوفية وعوائدها . لكن في حفظها والعمل بها ما يرقى الى منازل

١- را ، رب ، ق : اسدات حسان ؛ ف : اسرات . (ولعلها اشارات ؟)

الأبرار ويوصل الى عالم المقربين الأخيار ، جعل الله السعي في ذلك
موصلا الى الزلفى لديه . انه ولي ذلك والقادر عليه .

فمن كلامه ، رضي الله عنه : « أسماء الله تعالى بها تعلق وتخلق
وتحقق . فالتعلق الشعور بمعنى الاسم ؛ والتخلق أن يقوم بك معنى الاسم ؛
والتحقق أن تفنى في معنى الاسم . - وقال : الحق ، تعالى ، مطلع على السرائر
والضمائر في كل نفس و حال ؛ فأى قلب رآه مؤثرا له حفظه من
الطوارئ والمحن ومضلات الفتن . - وقال : اياك أن تميل الى غير الله
فيسلبك لذة مناجاته . - وقال : من رأيتنه يدعي مع الله تعالى حالا
لا يكون على ظاهره شاهد منه فاحذره . - وقال : من رزق حلاوة المناجاة
زال عنه النوم . - وقال : من عرف الله استفاد منه في اليقظة والنوم . -
وقال : لا يصلح (١) سماع هذا العلم الا لمن حصلت له أربعة :
الزهد ، و العلم ، والتوكل ، واليقين . - وقال : اجعل الصبر
زادك ، والرضى مطيتك ، والحق مقصدك و وجهتك . - وقال : من
تعلق بدعوى الأمانى لا يفارق التواني . - وقال : من اشتغل
بطلب الدنيا ابتلي فيها بالذل . - وقال : جعل الله قلوب أهل
الدنيا محلا للغفلة والوسواس وقلوب العارفين محلا للذكر والاستئناس . -
وقال : لا ينفع مع الكبر عمل ولا يضر مع التواضع بطالة . - وقال :
الفترة الاشتغال بالخلق عن الخالق . - وقال : الهوى (٢) قليل في
أهل الصلاح . - وقال : من لم يجد في قلبه زاجرا فهو خراب . -
وقال : توكل على الله حتى يكون الغالب على ذكرك ، فان الخلق
لن يغنوا عنك شيئا . - وقال : بالمحاسبة يصل العبد الى درجة
المراقبة . - وقال : من أهمل الفرائض فقد ضيع نفسه . -
وقال : من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه . - وقال : الدعوى

١ - ق: لا يصح .

٢ - رب ، ف ، ق : أهل الهدى

من رعونة النفس . - وقال : أبناء الدنيا يخدمهم العبيد والاماء
 وأبناء الآخرة الأحرار و الكرماء . - وقال : من خدم الصالحين
 ارتفع بخدمته . - وقال : من حرم احترام الأولياء ابتلاه الله بالمقت
 من خلقه . - وقال : ثمرة التصوف تسليم كله . - وقال : من ترك
 التدبير والاختيار طاب عيشه . - وقال : مروءتك اغضأوك عن تقصير
 غيرك . - وقال : الغيبة عن الحق خيبة : - وقال : التعظيم امتلاء
 القلب باجلال الرب . - وقال : المهمل في الاحوال لا يصلح لبساط
 الحق . - وقال : كل حقيقة لا تمحو أثر العبد ورسمه فليست بحقيقة .
 - وقال : ما عرف الحق من لم يؤثره وما أطاعه من لم يشكره . -
 وقال : المروءة موافقة الاخوان في ما لا يحظره العلم عليك . - وقال :
 قوة العارف بمعروفه (١) وقوة الغير بمعتاده ومألوفه . - وقال :
 من أراد الصفا فليلتزم الوفا . - وقال : أسس هذا الشأن على الزهد
 والاجتهاد . - وقال : التناذك بالبلاء تحقيق بالرضى . - وقال : الفقر
 أمانة على التوحيد ودلالة على التفريد . - وقال : الزهد فريضة
 وفضيلة وقربة . فالفرض في الحرام والفضل في المتشابهة والقربة
 في الحلال . - وقال : من قطع موصولا بربه قطع به . - وقال : من
 شغل مشغولا بربه أدركه المقت . - وقال : يا نفس هذه موعظة
 لك ان استيقظت - وقال : من استكن لغير الله تعالى نزع الله الرحمة
 من قلبه . - وقال : علامة الاخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة
 الحق . - وقال : احذر صحبة المبتدعة اتقاء على دينك واحذر
 صحبة النساء اتقاء على ايمان قلبك . «

و اعلم ان كلام الشيخ ، رضي الله عنه ، كله دال على علو مقامه
 وبديع قصده ومرامه .

وأما كراماته وأحواله الصادقة والخبر الصادق فكثير . وبلغ ،

١ - ك : قوة العارف بمعرفته .

رحمه الله ، من الورع مقاما عليا ونال من الزهد والتحقيق منالا
سنيا تبعه فيه المتقون واقتدى به المحققون ولازمه المصدقون
وله أشياخ مشاهير واخوان جماهير وأصحاب جواهر وأنا أشير
الى بعضهم قصد التبرك به وبهم وليس المراد التعريف بالرجال وانما
المراد بعض ذكر شواهد الأحوال .

فمن أشياخه الشيخ الفقيه الصالح أبو الحسن علي ابن حرزهم
قد قدمنا ذكره في صدر هذا الكتاب فأغنى ذلك عن اعادة التعريف
به . وقد ألف بعضهم تاليفا حسنا في التعريف به وذكر فضائله
وعلمه وكراماته . ومن أخباره أنه قدم مراکش فاستدعاه بعض
أمراء صنهاجة ليقرأ عليه فأجابه الى ذلك فجلس الأمير على
السرير وجلس أبو الحسن تحته فقال له أبو الحسن : « هكذا تفعل مع
أشياخك ؟ » فقال : « نعم . » فقال له أبو الحسن : « أنا هو الذي
أكون على السرير وتنزل أنت الى مكاني وهذا من أدب المتعلم مع
المعلم . » فقال الأمير : « نعم . » فنزل وجلس أبو الحسن على السرير
ولازمه وما زال يأخذه بسلوك الطريق والتضييق حتى لم يجد
الأمير ما يفتن به الا ما يدفع اليه بعض التجار عن طيب نفس وبلغ
الأمير من بركته النهاية من مقام الورع وهذا من بركته رضي الله عنه (١) .
وكان كثيرا ما ينشد :

أَوْ اللَّهُ كَمْ هَدِي الْمَعَاصِي إِلَى مَتَى
وَأَرْيَاحُ أَثْقَالِ الصَّبَا عَنِّي رَاكِدَةٌ
إِلَهِي رَجَائِي مِنْكَ غُفْرَانُ زَلَّتِي
وَإِصْلَاحُ حَالَاتِي الَّتِي هِيَ فَاسِدَةٌ (٢)

١ - التشوف ، ص ١٤٨ .

٢ - من الطويل . ف : رياحي أثقالي عن صباغي راكدة ؛ ق :
رياح أثقالي عن صبا عني راكدة ؛ ك : أسقط منه البيت الأول .

البيت اكبر بيته في المغرب في الصلاح لأنهم يتوارثونه كما يتوارث
الناس المال (١) . وقد دخلت بلدهم و رأيت أبناء بني أمغار نفع
الله بهم و بأسلافهم . وكان أبو ينور ، نفع الله به ، بقرية
يليسكاون (٢) في زمن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني . وهو
الذي وجهه عسكره الى هذه القرية فجاءوا الى أبي ينور فقال لهم :
« ردهم الله عنكم ! » فلما بقي بينهم وبين الطريق قدر نصف ميل
أصاب القائد وجع فمات .

وقال أبو شعيب يوما في مجلسه : « ان الله تعالى يعطي الدنيا كما
يعطي الآخرة . فمن كانت له حاجة من أمور الدنيا فليذكرها
لنساءل الله تعالى فيها . » (٣) وهذا لا يقوله الا زعيم في الرجال . وكان
من عاداته اذا حل في موضع لا يجلس حتى يصلي ركعتين . وصلى
عيد الأضحى بأغمت وانصرف الى بلد آزموور فوجد أهله يريدون
ذبح الأضحية وبين البلدين أربعة أيام (٤) . و أرسل الى أبي
يعزى فقال له : « لاتفضح الناس . » فقال أبو يعزى : « يرسل الي
أيوب ويقول لي : لا تقل ؛ وما باختيارى أقول ما أقول ، والله ، ما كان
مني . » قال أبو يعزى : « خدمت أربعين وليا من أولياء الله تعالى منهم
من ساح ومنهم من بقي بين الناس . » قال ميمون التاروطي (٥) ، رحمه
الله : « زرت أبا يعزى وأقمت عنده فوصلت جماعة من فاس برسوم
الانكار عليه فوثب السبع على دابة من دوابهم . فصاح أبو يعزى
عليه وجذبه من أذنيه وقال لأصحابه : اركبوه . ففروا

-
- ١ - راجع التشوف ، ص ١٩٠ ، ٢١٧ ، ٤٤٥ .
 - ٢ - ف : سيسكاون ؛ ق : يبيسكاون (?) ؛ ك : بيسكاون . والصواب
كما جاء في التشوف : يليسكاون أو يليسكاون .
 - ٣ - التشوف ، ص ١٦٩ .
 - ٤ - التشوف ، ص ١٦٨ .
 - ٥ - ونحن نظن ان الصواب الباروطي كما جاء في التشوف
راجع ص ١٩٨ .

منه . فركبته أنا فكنت أحس بوبره نفذ في ثوبي . « وشكا الناس إليه مرة احتباس المطر . فرمى بشاشيته وبقي رأسه أبيض ونظر وقال : « يا مولاي هؤلاء السادة يطلبون من هذا العبد المطر . ما قدرني أنا حتى يطلب مني المطر ؟ » ثم بكى فأنزل الله المطر . (١)

وكان الشيخ الفقيه الصالح الشهير أبو محمد يسكر بن موسى (٢) فقيه فاس كثير الزيارة له وهو شيخ أبي محمد صالح الهسكوري الذي ينسب إليه شرح الرسالة وشيخ أبي محمد يسكر أبو خزر يخلف الأوربي الفقيه (٣) . وتوفي أبو محمد يسكر عام ثمانية وتسعين وخمسائة . وحدث عن بعض الأولياء قال : « طلبنا التوفيق فوجدناه في اطعام الطعام . » ودخل أبو محمد يسكر جامع فاس بالليل وليس فيه قنديل فأضاء منه الجامع حتى صلى وخرج وعابنه الناس . وأبو خزر هذا هو الذي كان بعدوة الأندلس من فاس المحروسة . وكان أبو الحسن علي ابن حرزهم في عدوة القرويين منها . وجاء رجل الى أبي الحسن ابن حرزهم فقال له : « رأيت البارحة شمعتين مشعولتين بعدوة الأندلس من فاس المحروسة والأخرى بعدوة القرويين والتي بعدوة الأندلس أكثر ضياء من الأخرى . » فقال أبو الحسن : « أما التي بعدوة الأندلس فهو الفقيه أبو خزر ، وأما التي بعدوة القرويين فأنا . وإنما كنت أقل ضياء لكثرة مزاجي مع الناس . » فكان الفقهاء يزورون أبا يعزى وإذا رأهم يلحس أقدامهم ويقول لهم : « مرحبا بموالينا ! مرحبا بمصاييح الدنيا » .

قلت : وأبو محمد هذا هو شيخ الفقيه راشد بن أبي راشد الوليدي صاحب كتاب الحلال والحرام . والفقيه راشد شيخ الفقيه الشهير أبي الحسن الصُّغَيْرِ . والفقيه أبو الحسن الصغير شيخ الفقيه أبي محمد

- ١ - التشوف ، ص ١٩٩ .
- ٢ - التشوف ، ص ٣٣٨ .
- ٣ - التشوف ، ص ١٥٧ .

عبد العزيز القروي ، نفع الله به . وهو الذي قال له السلطان أبو الحسن المريني : « تخرج مع عامل الزكاة . » فقال له عبد العزيز هذا : « أما تستحي من الله تعالى ! تأخذ لقباً من ألقاب الشريعة وتضعه على مغرم من المغارم ! » . فضربه السلطان بالسكين التي يحبسها على عادته في يده وهي في غمدها وضربه بها جملة وقال له : « هكذا تقول لي ؟ » . فبادر إليه الوزير وأخذ بيده وأخرجه اطفاء لغيظ السلطان . وقام السلطان الى داره وما جلس الا وقد اشتد وجع يده التي ضربه بها ثم خرج فقال : « ردوه الي ؟ » فردوه فاعتذر اليه وقال له « طيب نفسك علي فاني علمت أنك ما قلت لي الا الحق ! » فقال : « الله يغفر لي ولك . » وانصرف وكان السلطان بعد هذا المجلس يزوره بداره وكان لا يدخل شيئاً من الباب حتى يعطي المغرم المعلوم ويقول : « أكره أن أمتاز عن الناس بشيء . » وهو الذي جمع تقييد المدونة على الفقيه أبي الحسن الصغير وهو الآن محبس بفاس بخط يده . وأما التقييد الكبير فجمعه رجل من صدور الطلبة يقال له اليعمدي . قال بعض الفقهاء : « دخلت عليه وهو ملتحف في كسائه وكتب الفقه مبسوطة بين يديه وأعراقه تقطر عليه وكساؤه في غاية من الوسخ فقلت له : « ارفق بنفسك واغسل كساءك ! فقال لي : ستة أشهر نروم غسلها وما وجدت سبيلاً لذلك من أجل هذا الشغل . وتعجبت منه وانصرفت . »

وأبو محمد عبد العزيز هذا شيخ شيخنا ومفيدنا طريقة الفقه الشيخ الحافظ أبي عمران موسى بن محمد بن معطي شهر بالعبدوسي . وشيخ شيخنا العبدوسي أيضا الشيخ الصالح الشهير أبو زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي الذي ينسب اليه شرح الرسالة . وتوفي في حدود أربعين وسبعمائة . وشيخه الفقيه راشد كان مؤيدا في الرسالة ، معروفا بالفضل والصلاح والانقطاع الى الله

تعالى . وتوفي شيخنا العبدوسي ، رحمه الله ، في أوائل سنة ست وسبعين وسبعمائة . وكان في مجلسه يشير لنا بذلك . وكان مجلسه أعظم المجالس بفاس يحضره الفقهاء والصلحاء والمدرسون وحفاظ المدونة وتحضر من نسخها بيد الطلبة ما يقرب من الأربعين . وكان له ادلال عجيب في اقراء التهذيب . سمعته يقول : « لي أربعون سنة نقرىء المدونة » . وفي العام الذي توفي فيه وقف قارئ الرسالة على باب الجنائز . فكره الطلبة ذلك وأرادوا الزيادة . ففهم عنهم وقال لهم : « كرهتم الوقوف على باب الجنائز والله لا أقف الا عليه . » فوقف القارئ عليه وتوفي الشيخ في تلك السنة . ولا رأيت في الفقهاء أعظم تعظيما للشيخ أبي يعزى وكان في أكثر مجالسه يذكر لنا ما تبكى (١) من أحواله ويشير أن ما ثم في الأولياء مثله . وكان يحكي عنه في باب زكاة الحرث أنه اذا حرث يخرج للضعفاء تسعة أعشار صابته ويتمسك بالعشر و يقول : « من سوء أدب أن أخرج العشر وأتمسك بتسعة أعشار . » وحدثنا أيضا أن الشيخ أبا الحسن علي ابن حرزهم سجنه السلطان بمراكش فقال لتلامذته : « لا ألث في السجن ! » فقالوا له : « سبحان الله اسكت وهل سجننت الا على هذه الأحوال . » فقال لهم : « ان الشيخ أبا يعزى ها هو ذاك ينظرني ولا يتركني فانه كل ما يطلبه من مولاه يعمله له . » وبينهما مسيرة خمسة أيام فأطلق من ساعته . (٢) ووقفت على هذه الحكاية لغيره . وما زال شيخنا العبدوسي ، رحمه الله ، يكررها في المجلس . وقد جمع العزفي ، رحمه الله ، في كرامات أبي يعزى ما لا أطول بذكره . وكانت وفاة أبي يعزى رحمه الله ، في شوال من عام اثنين وسبعين وخمسائة .

١- في كل المخطوطات : تبدا ؛ وفي ك : ... يذكر لنا مبادئ من أحواله .

٢- التشوف ، ص ١٥١ .

وترك أولادا . رأيت شيخا من أحفاده على صفة جده في لونه وقده .
وتبركت به وذلك في عام واحد وستين وسبعمائة . وكان غرضي
الوقوف على قبره فبقي بيني وبين موضعه بتأغية جوفي تادلا نصف
يوم . فعدمت الرفيق لخوف الطريق فرجعت . والمؤمل حصول الثواب
ان شاء الله تعالى .

بِاللَّهِ إِنْ كُنْتَ قَدْ خَيَّمْتَ عِنْدَهُمْ
بِالْمُنْكَحَى بَيْنَ أَنْجَادٍ وَأَجْوَادٍ
هَاتِ التَّحْدِيثَ عَنِ الْمَعْنَى وَسَاكِنِهِ
وَأَرْفَعْ لِسْتَيْهِ الْعَلِيَاءِ إِسْنَادِي
وَأَرْوِي مِنْ حَدِيثِ الشَّيْخِ أَغْذَبَهُ
فِيَّاهُ الرَّيِّ يَشْفِي عُثَّةَ الصَّادِي (١)

ومن أشياخ الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الفقيه
الصالح أبو الحسن علي ابن غالب من فقهاء فاس الذي قرأ عليه
الشيخ أبو مدين السنن لأبي عيسى الترمذي في حديث النبي ، صلى
الله عليه وسلم . ولازمه وتفقه عليه وتوفي ابن غالب في حدود
التسعين وخمسائة (٢) وكان الأولياء يحضرون مجلسه . وحدث بعضهم
أنه ورث من أبيه اثني عشر ألف دينار . فتصدق بها كلها وقال :
كان والده لا يحسن الفقه . فسمع بذلك شيخه أبو العباس بن العريف
فقال : « يا أبا الحسن هلا طهره الثلث ! » وحدثوا عنه أنه اذا
اشكلت عليه مسألة علمية نظر الى جهة من جهات البيت فيجدها
مكتوبة في الجدار .

١ - من البسيط .

٢ - وفي التشوف : مات عام ثمانية وستين وخمسائة (ص ٢١١) .

مَا النَّاسُ إِلَّا الصَّالِحُونَ حَقِيقَةً

وَسِوَاهُمْ مُتَطَقِّلٌ فِي النَّاسِ (١)

ومن أشياخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو عبد الله الدقاق من أكابر الصوفية (٢) . وكان يتردد من فاس الى سجلماسة وكان يقول : « أنا أول من أخذ عنه الشيخ أبو مدين علم التصوف . » وكان الدقاق اماما في ذلك وفلتت منه يوما كلمة بين أصحابه ذكر فيها ضيق حاله فرأى بعضهم قائلا في النوم يقول : أنشد الدقاق :

قُلْ لِلرُّؤْيِيِّ جِلٍّ مِنْ دَوِيِّ الْأَقْدَارِ
الْفَقْرُ أَفْضَلُ شِيمَةٍ الْأَخْرَارِ
يَا مَنْ شَكَا لِلنَّاسِ فَعَلَّةَ رِبِّهِ
هَلَّا شَكَّوتَ تَحْمَلُ الْأَوْزَارِ
إِنَّ الَّذِي أُلبِستَ مِنْ حُلِّ التَّقَى

لَوْ شَاءَ رَبِّكَ كُنْتَ عَنْهُ عَارِي (٣)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الشهير أبو زكرياء يحيى بن أبي علي الزواوي (٤) المدفون بخارج بجاية وكان عالما صالحا زاهدا . حكى الفقيه القاضي أبو محمد بن كحيل البجائي وكانت ولادته عام اثنين وستمائة ووفاته في ذي حجة عام خمسة وثمانين وستمائة قال : أخبرني أبي ، رحمه الله ، أنه سمع من الشيخ أبي زكرياء قال : « كنت أحضر مجلس ابن عوف ، يعني أبا الطاهر ،

١ - من الكامل . راجع التشوف ، ص ٩٦ .

٢ - التشوف ، ص ١٣٥ .

٣ - من الكامل . راجع التشوف ، ص ١٣٦ .

٤ - التشوف ، ص ٤٤٧ .

بالاسكندرية - قال : ويحضر معنا رجلان خيران كانا اذا سمعنا حديثا في تهذيب الأخلاق اهتزنا . فتبعتهما يوما بعد خروجهما من المجلس حتى جازا باب البلد ، فالتفت أحدهما الي وقال لي : ارجع فانك لا تقدر على السير . فطلبتهما في الدعاء فقالا لي : علمك الله ما تنتفع به . وانصرفا ووقفت متحيرا واذا بقافلة فيها ركبان ورجال قالوا لي : من أين قمت اليوم ؟ فقلت لهم : خرجت من الاسكندرية الساعة . فضحكوا مني واستحتمقوني . فأقبل علي شيخ منهم فاستفهمني فأخبرته . فقال لي : هذه مصر قريبة منك . فرافقتهم فدخلت الاسكندرية بعد أربعة أيام فوصلت ابن عوف فلما رأني قال لي : نفرتهم عنا يا يحيى ! » وكان يقول : « لاتحقروا أحدا من السؤال . كان واحد يعتادنا عند العشاء فندفع اليه ما تيسر لنا . فأخرجنا له ليلة جميع العشاء لأنني كرهت أكله من أجل أنه طبخ بماء طلبته الزوجة من الجيران . فرده وقال : تطعموني ما نزهتم أنفسكم عنه ! » وكان له كرسي بجامع بجاية يقرىء عليه العلم . وأكثر ما يقرىء التفسير والحديث . وكان كثير الخوف من الله عز وجل كثير التخويف للناس يحذروهم جهنم وحرها وعذابها وشرها . قال له الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه : « لا تقنط الناس وذكروهم بأنعم الله تعالى . » فقال : « لا أقدر الا على هذا . » وذكر يوما في مجلس اقراءه النار و أهوال يوم القيامة فقال له بعض الطلبة : « شوقنا الى الجنة ! » فصاح حتى غشي عليه وقال له : « متى خرجنا من النار حتى ندخل الجنة ؟ » ولم يرج الناس ويطمعهم الا في يوم موته وقال لهم في ذلك اليوم - وهو يوم الجمعة بعد أن صلاحها منتصف رمضان المعظم من عام أحد عشر وستمائة ، رحمه الله ونفع به وقبر الشيخ الولي الصالح المكاشف أبي الفضل قاسم القرطبي قريب منه ، وأبو الفضل هذا من تلامذة الشيخ أبي أحمد ، رضي الله عنه ونفع به ، وكان من كبار الصالحين وكانت وفاته عام اثنين وستمائة - :

طَوَّبَى لِمَنْ قَلْبُهُ بِاللهِ مُشْتَغِلٌ
يَبْكِي النَّهَارَ وَطَوَّلَ اللَّيْلَ يَبْتَهِلُ
خَوْفُ الوَعِيدِ وَ ذِكْرُ النَّارِ أَحْرَقَهُ
وَالدَّمَعُ مِنْهُ عَلَى الْخَدَّيْنِ يَنْهَمِلُ (١)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو علي يعزى ابن الشيخ أبي يعزى وكان في حياة أبيه يحب الرئاسة والدنيا ولما احتضر والده حرص على رؤيته . فاختلف الناس اليه فجاءه بعد أن نزع ثيابه التي لا تليق بالفقراء ولبس غيرها ودخل على أبيه فقبل رأسه . فقال له والده : « تب الى الله يا يعزى . » فقال : « تبت الى الله تعالى . » كلمه بذلك ثلاث مرات وابنه يجيبه بمثل ما أجابه أولا . ثم قال : « افتح فاك يا ولدي . » ففتحها ، فبصق الشيخ فيه بصقة . ثم مات وخلفه ابنه وقام مقامه ولحق بالأولياء من ساعته . قال أبو عبد الله التاودي ، رحمه الله : « حضرت عند أبي علي يعزى وجيء له برجل قعد عن الحركة . فما زال يتفل عليه حتى قام . - وقال التاودي حضرت عند أبيه قبل موته بيسير ، فرأيت ثورا أكحل اللون وهو يلحس بلسانه في الشيخ أبي يعزى والشيخ يمسح عليه بيده ويقول : أي صنيع يصنع به ! - قال التاودي : فذبح بعد موته وصنع للناس منه الطعام . » (٢)

مِنْ أَيْسِنِ أَرْضِيكَ إِلَّا أَنْ تُوَفَّقَنِي
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مَا التَّوْفِيقُ مِنْ قِبَلِي (٣)

١ - من البسيط .

٢ - التشوف ، ص ٢١٤ .

٣ - من البسيط .

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو جعفر محمد بن يوسف الصنهاجي (١) وكان مشهور الكرامة ومن كبار الصالحين قال : « زرت الشيخ أبا يعزى مائة مرة وما وجدت الا بركة الرجال . » وكان الشيخ أبو يعزى يناديه من مكانه فيجيبه : نعم . وبينهما خمسة أيام . فعاتبه مرة وقال له : « ناديتك ثلاث مرات فلم تجبني الا في الثالثة فاستغفر الله تعالى ! »

مَا زِلْتُ مُدَّ سَكَنُوا قَلْبِي أَصُونُ لَهُمْ

لَتَحْطِي وَنُطْقِي وَسَمْعِي إِذْ بِهِمْ أَنْسِي (٢)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله التاودي (٣) بفاس وكان يعلم الأولاد القرآن و يأخذ الأجرة من أولاد الأغنياء خاصة ويدفعها لأولاد الفقراء وكان يخطط ثياب المساكين . وتوفي في عام ثمانين وخمسمائة . قال الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه : « جاء رجلان الى أبي عبد الله التاودي يزوراناه . فأبصرا بين يديه هريرين جعل كل واحد منهما رأسه على الآخر فقالا له : هكذا ينبغي ان تكون الأخوة . فأخذ التاودي لقمة من خبز ورمى بها اليهما . فوثب كل واحد منهما على الآخر ليأخذ اللقمة . فقال أبو عبد الله : هكذا كانت الأخوة حتى دخلت الدنيا فأفسدتها . »

رَجَاءُ اللَّهِ سَادَاتُ كِرَامٍ

لَهُمْ فِي التَّخْيِيرِ إِنْ لَاحَ أَتْبَعَاتُ

فَهُمْ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا أَمَانٌ

مِنَ الْأَمْرِ الْمَخْشُوفِ وَهُمْ غِيَاتُ

١ - التشوف ، ص ٤١٥ .

٢ - من السيط .

٣ - التشوف ، ص ٢٦٣ .

أَبَانُوا صُحْبَةَ آلِ دُنْيَا وَقَالُوا

طَلَّاقِكَ فِي شَرِّ بَعْتِنَا ثَلَاثُ (١)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن ابراهيم الصنهاجي وشيخه الشيخ أبو الحسن ابن حرزهم . وكان من عباد الله الصالحين وقبره بالاسكندرية . قدم اليه بعض أصحابه تينا طريا فأبى أن يأكله وقال :

صَبْرْتُ عَنِ اللَّذَاتِ لَمَّا تَوَلَّتْ

وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي هَاجِرَهَا فَاسْتَقَلَّتْ

وَكَانَتْ عَلَى الْأَيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً

فَلَمَّا رَأَتْ صَبْرِي عَلَى الدَّلِّ ذَلَّتْ (٢)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو تميم عبد الرحمن الهزميري (٣) وكان حافظا للمسائل وقبره قريب من مكناسة الزيتون (٤) . حدث عنه الشيخ الصالح أبو الحسن بن عبد الكريم قال : « أعجب ما رأيت من أخبار الصالحين أني مشيت بأختي حين ظهر البرص بها في الوجه الى مدينة فاس ليعالجها الأطباء . وحملت معي بسبب ذلك نفقة ، فلم ينفع الدواء . فرجعت بها وقصدت زيارة أبي تميم . فلما دخلت عليه قال لي : ما سويت عندك شيئا حين تركتني وذهبت الى الأطباء! فخرجت وبتنا عنده . فلما صلينا الصبح وقعدنا في مصلانا جاءت أختي وسلمت عليه وقعدت وجعل يحدثنا ويمسح بريقه على موضع

١- من الوافر . راجع التشوف ، ص ١٦١ .

٢- من الطويل ، راجع التشوف ، ص ٢٤٢ .

٣- في التشوف : أبو تميم عبد الواحد الأسود ؛ راجع ترجمته ، ص ٢٥٩ ، رقم ١١٧ .

٤- في طرة من مخطوط ك : « بل قريب من جبل زرهون ، وضريره مشهور بسلفات معروف بسيدي بو تميم بموضع يقال له حافة بو شريف .

البرص المرة بعد المرة فغلبنني النوم وأنا جالس ثم انتبهت فوجدته مستندا يذكر ونظرت الى وجه أختي فاذا هو قد ذهب البرص منه . فأعلمتها . فقامت مسرورة بفضل الله تعالى . »

مَحَبَّتُهُمْ قَرَضُ وَ رُؤْيَتُهُمْ هُدَى

وَاللَّذِينَ مِنْهُمْ أَلْسُنٌ وَقُلُوبٌ (١)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح الفقيه أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري السبتي (٢) . وقرأ عليه الشيخ أبو مدين بفاس . ولأبي الصبر هذا كتاب عرف فيه بالشيخ أبي مدين وذكر فيه فضله . وكانت أمه من الصالحات . كانت اذا غاب عنها حديثه بما جرى له في مغيبه . قال أبو علي الصواف (٣) ، رحمه الله : « سمعت الشيخ أبا مدين يقول : جاء أبو الصبر أيوب بصحفة كبيرة من عود من عمل الروم من سبته الى منزل الشيخ أبي يعزى على رأسه . فقبلها منه أبو يعزى وكان يطعم فيها الزائرين . قلت : وبين سبته وتاغية ، موضع أبي يعزى ، ثلاثة عشر يوما . »

قَطَعْتُ الْأَرْضَ ذَا سَيْرٍ حَثِيثٍ ❁ كَلَمَحِ الْبَرْقِ حُبًّا فِي التَّلَاقِي
وَقَالَ لِي الْعَدُولُ وَقَدْ رَأَيْتِي ❁ سَبُوقًا بِالْمُضَمَّرَةِ الْعِتَاقِي
رَكِبْتُ عَلَى الْبُرَاقِ فَقُلْتُ كَلًّا ❁ وَلَا كَيْنِي رَكِبْتُ عَلَى أَشْتِيَا فِي (٤)

١ - من الطويل .

٢ - التشوف ، ص ٤٣١ .

٣ - هو أبو علي حسن بن محمد بن الفتح الغافقي الصواف .
راجع التشوف ، ص ٥٠٥ .

٤ - من الوافر . راجع التشوف ، ص ٣٢٦ .

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، يحيى بن صالح (١)
خديم الشيخ أبي يعزى وكان كثير الخوف من الله تعالى . بكى حتى
سقطت عيناه من كثرة البكاء ولما عمي ضاعف أوراده واجتهد في عبادته ،
نفع الله به .

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوَدَّ فَالْكُلَّ هَيِّنٌ
وَكَلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابٌ (٢)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح
أبو محمد عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأنصاري يعرف
بالقصري (٣) كان كثير البكاء ومن عباد الله الصالحين الملازمين للعبادة .

رِجَالُ اللَّهِ قَدْ سَعِدُوا وَفَازُوا
وَنَالُوا فَضْلَ رَحْمَتِهِ وَكَازُوا
رِجَالٌ طَلَّقُوا الدُّنْيَا ثَلَاثًا
وَلَوْ جَازَ الرَّجُومُ لَمَا اسْتَجَازُوا
وَمَا آفَتُوا بِمَخْلُوقٍ وَكَانَ
لَهُمْ بِالتَّخَالِيقِ الْأَحَدِ آفَتٌ زَارٌ

١ - التشوف ، ص ٣٦٦ .

٢ - من الطويل .

٣ - التشوف ، ص ٤٣٢ .

كُمُوا (١) أَلَدُنِيَا فَلَيْسَتْ لَهُمْ لِيَتَبَدُّو

وَهَلْ تَخْفَى الْحَقِيقَةُ وَالْمَجَازُ

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الشهير العالم المحدث الصالح الخطيب القاضي العدل ، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي ، الحافظ ، صاحب الأحكام الكبرى والصغرى في الحديث والعاقبة في التذكير الى غير ذلك من التواليف . كانت ولادته عام ستة عشر وخمسمائة و وفاته عام اثنين وثمانين وخمسمائة . وقبره ببجاية المحروسة خارج باب المرسى . وأول اجتماع به وقع له مع الشيخ الفقيه القاضي العدل الشهير أبي علي المسيلي صاحب التذكرة في أصول الدين وغيرها . وقبره يتبرك به خارج باب أمسيون من بجاية وذلك أنهما كانا أخوين في الله تعالى مصاحبين في العلم والدين والزهد واليقين ، واتباع سلف المؤمنين . فسمعا بالشيخ أبي مدين وأنه يأتي من العلم بفنون وأنه اطلع من أمر الله تعالى على سره المكنون ؛ فكانا يتعجبان ويبعدان ما عنه يسمعان . فاتفق رأيهما على الاجتماع معه والاطلاع على ما عنده فسارا اليه الى أحد مسجديه اللذين يجلس فيهما مع خواصه . فدخلا عليه فوجده يفيض النور (٢) ويستخرج

١- كذا في كل المخطوطات والصواب كما جاء في التشوف :

وما اعتزوا بمخلوق ولكن لهم بالخالق الأحد اعتزاز
[أردت لحاقهم وعجزت عنهم وحدث عن الاجازة اذ أجازوا
أ تظمع في اللحاق ولا نهوض و تفرح بالرحيل ولا جهاز
وأنت أخوهم نسبا ولكن طرازك فوقه ذاك الطراز]
دع الدعوى فلست لهم بند وهل تخفى الحقيقة والمجاز
يرى القارئ أنه قد سقطت من كتاب أنس الفقير من الأبيات
ما بين منعقفين . فصار البيت الأخير مختل المعنى والوزن . راجع
التشوف ، ص ١٥٨ . من الوافر .

٢- رب ، ف ، ق : الأمور ؛ وعلى الهامش : الأنوار ؛ ك : الأنوار .
والأنسب للسجعة : النور .

الدرر من قيعان البحور . فلما فرغ من كلامه سلما عليه وسلم عليهما . وما اجتماعا به قط ولا رأهما . فقال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه : « أما هذا فالفقيه أبو محمد عبد الحق ، وأما هذا فالفقيه أبو علي المسيلي . » فقالا : « نعم . » وكان ذلك من كراماته . ثم قال له : « بلغنا أنك لم تزد على سورة « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ » (١) . فقال لهما : « نعم ، كانت سورتي ، ولو تعديتها لاحتقرت . » ثم التفت إليهما وقال بنزعة صوفية : « بي قُلْ وعلي دُلْ فأنا الكل . » ثم انفصلا عنه وعلما ان لله تعالى مواهب لا يسعها المكاسب وان الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء . فواخاه (٢) أبو محمد عبد الحق ، رحمه الله ، وأقر له بالسبق في الطريق . وكان بعد ذلك اذا دخل على الشيخ أبي مدين ورأى ما أيده الله به ظاهرا وباطنا يجده على حالة سنينة لم يجدها قبل ظهوره في مجلسه ويقول عند ذلك : « هذا وارث على الحقيقة . » هكذا نقل محيي الدين الامام المحقق الصوفي أبو عبد الله محمد الحاتمي المعروف بابن العربي ، صاحب كتاب مواقع النجوم في التصوف وغيره من التآليف . وتوفي محيي الدين هذا في حدود الأربعين وستمائة ، أعاد الله علينا بركة الجميع .

لَا تَتَّخِذَنَّ أَمْرًا حَتَّىٰ تُنَجِّرَ بِهِ
وَلَا تَذُمَّهُ مِنِّ غَيْرِ تَنْجِيرِ (٣)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الشهير أبو محمد بن ينصارن الماجري (٤) الذي بأسفي . وشيخه عبد الرزاق

١ - سورة الملك : ١ .

٢ - رب ، ف ، ق : فوافاه ؛ را ، ك : فواخاه . واخاه لغة ضعيفة في آخاه ، بمعنى اتخذه أخاه .

٣ - من البسيط .

٤ - التشوف ، ص ١٣ و ٢٣٦ .

الجزولي (١) و عبد الرزاق هذا رفيع القدر وقبره قرب الاسكندرية ويتبرك به وهو من كبار تلامذة الشيخ أبي مدين . ولازمه مدة طويلة . قيل للشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه : « ان عبد الرزاق يواصل سبعة أيام . » فقال : « دعوه ان كان كاذبا فعقوبته الجوع و ان كان صادقا فسينتفع به . » وأبو محمد هذا هو الذي تزوج جارية الشيخ أبي مدين . وذلك أن الشيخ أبا يعزى أخبره بأنه تهدي له جارية حبشية يكون له منها ولد . فان عاش يكون له شأن عظيم . فأهديت له ببجاية وتزايد (٢) له منها ولد سماه محمدا ثم اعتزل الشيخ عنها واغتم منها . فسألته تلامذته عن سبب اغتمامه . فقال : « هذه الجارية لم يبق لي فيها أرب ولو لا ان الشيخ أبا يعزى أخبرني بالولد ما قربتها . فان تركتها أئمت وان زوجها لأحد خفت على الولد . » فقال عبد الرزاق الجزولي : « أنا أتزوجها وأربي الولد . » فقال له الشيخ أبو مدين : « نكاح الحبشية عند المصامدة عار . » فقال له : « ليس في نفسي شيء من ذلك . » فتزوجها عبد الرزاق وربى الولد وظهرت العجائب في الولد من قوة حفظه وظهور بركته ومات الولد بعد مدة نفع الله به وبأبيه .

تَزَوَّدَ قَرِينًا مِّنْ فِعَالِكَ إِنَّمَا
 قَرِينُ الْفَتَى فِي الْقَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ
 أَلَّا إِنَّمَا الْإِنْسَانُ ضَيْفٌ لِأَهْلِهِ
 يُقِيمُ قَلِيلًا عِنْدَهُمْ ثُمَّ يَرْحَلُ (٣)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو علي حسن بن محمد الغافقي الصواف . لازمه ثلاثين سنة ولم

١ - التشوف ، ص ٣٢٦ .

٢ - را ، ف ، ق ، ك : تزيد .

٣ - من الطويل . راجع التشوف ، ص ١٨٨ .

يفارقه ، الا بالموت ، في العباد . وحدث عنه أخبارا ورأى له أسراراً
و انتفع على يديه . و تحسر بعد موته عليه . و نسب كل فضيلة
ظهرت في تلامذته اليه . و سأورد شيئاً مما حدث عنه ان شاء الله .

بِذِكْرِكُمْ يَا نَسْرَ الْمُشْتَأَقِ بَعْدَكُمْ
أُنْسَ الْغَرِيبِ إِلَى الْأَحْبَابِ وَالْوَطَنِ
يُدْرِي هَوَاكَ وَإِنْ أَخْفَيْتَهُ وَمَتَى
يَغْلِبُ عَلَى السِّرِّ شَيْءٌ بَانَ فِي الْعَلَنِ (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الفقيه أبو عبد الله
محمد بن ابراهيم الأنصاري (٢) وهو من كبار تلامذته و كثير الرواية
عنه . حدث فقال : « كنت ليلاً ببجاية برابطة الزيات مع أبي
علي منصور الملياني من تلامذة الشيخ ، رضي الله عنه ، في ليلة
مقمرة وقد قام كل واحد منا الى أوراده بالليل . فسمعت حساً كحس
طائر طار بشدة . فرفعت بصري فاذا بشخص ظاهر على البحر يصلي .
فكتمت ذلك عن أبي علي الملياني ثم قال لي أبو علي : « هل ترى
ما أرى ؟ » فقلت له : « رأيتُه حين انزعج وسترته ذلك عنك . » فقال
لي : « هو فلان الذي يحضر معنا مجلس الشيخ أبي مدين ، رضي
الله عنه . »

يَزِيدُ أَشْتِيَاقِي كُلَّ مَا مَرَّ ذِكْرُكُمْ
وَ أَهْجُرُ ذِكْرَ الْغَيْرِ حِينَ يَزِيدُ
وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا فِي الْفَوَادِ وَإِنَّمَا
مَغِيبُكَ عَنِّي سَمْعِي عَلَيَّ شَدِيدُ (٣)

١- من البسيط .

٢- التشوف ، ص ٥١٩ .

٣- من الطويل .

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو علي عمر الصباغ (١) وكان صاحب مكاشفة وهو الذي قال : « صليت المغرب مع الشيخ أبي مدين . فرأيت وأنا في الصلاة ثلاثا وأربعا من الحور العين يلعبن . فلما سلمنا من الصلاة قلت للشيخ أبي مدين ما رأيت فقال : و هل رأيتهن ؟ قلت : نعم . قال لي : أعد صلاتك فان المصلي يناجي ربه وأنت انما ناجيت الحور العين . » قال الشيخ أبو علي حسن الغافقي ، رحمه الله تعالى : « حدثني بهذه الحكاية شيخنا أبو مدين فقال : صليت مع الصباغ ، الى آخرها . »

إِنَّ شَفِيعِي إِلَيْكَ حُزْنِي ۞ وَدَمْعُ مَيِّنِي وَحُسْنُ ظَنِّي
فِيَّ الَّذِي قَادَنِي ذَلِيلًا ۞ إِلَيْكَ إِلَّا عَفَوْتَ عَنِّي (٢)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو عمران موسى الحلاج (٣) . كان يحلج القطن بفاس . فلما شاعت عنه العجائب من المكاشفة والحديث بخفيات الأمور خرج خائفا على نفسه وفر من المغرب مشرقا و انتهى الى بجاية . فقصده الشيخ أبا مدين ، فسلم عليه فقال له الشيخ أبو مدين وهو يعرفه : « ما اسمك ؟ » فقال : « موسى . » فقال له الشيخ أبو مدين : « وأنا اسمي شعيب وقد أمنت . فان موسى ، عليه السلام ، لم يأمن حتى لقي شعيبا عليه السلام . » قال الشيخ أبو علي حسن الغافقي ، رحمه الله : « غاب موسى الحلاج عن أبي مدين مدة ثم قدم عليه فوجده في مجلس اقراءه فجلس . فلما فرغ الشيخ من اقراءه قام اليه موسى الحلاج فسلم عليه فقال له الشيخ أبو مدين : يا أبا عمران على من وجبت الضيافة ، على الزائر أم على المزور ؟ فسكت أبو

-
- ١ - التشوف ، ص ٢٢٥ .
 - ٢ - من مخلع البسيط .
 - ٣ - التشوف ، ص ٣٣٠ .

عمران . فقال له الشيخ : علي الطعام وعليك العسل . فقال : نعم . فأمر الشيخ أبو مدين بصحفة فجاؤوا بها . فأخذها أبو عمران وجعلها خارج البيت ثم صلى ركعتين ثم افتقدتها فلم يجد شيئاً . فقال الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه : أعطني ثوبك . فناوله إياه . فخرج وغطى به الصحيفة . ثم عاد الى ركن الزاوية فطلى ركعتين ثم رجع فخرج وأدخل الصحيفة وهي مملوءة عسلاً أبيض . فأكل الحاضرون . قال الشيخ أبو مدين : وأكلنا من ذلك العسل خمسة وعشرين يوماً ولم ينقص ثم خفت أن يكون لي معلوما فتصدقت به . » رحمهم الله ونفعنا ببركاتهم بمنه وفضله وكرمه .

تَذَكَّرْتُ أَمْرِي فَأَنْفَرَدْتُ بِعُرْبِي
فَصِرْتُ فَرِيدًا فِي الْبَرِّيَّةِ أَوْحَدًا
نَسْرَمَدَ وَقَتِي فِيكَ فَهَوَ مُسْرَمَدُ
وَ أَفْتَيْتَنِي عَنِّي فَصِرْتُ مُجَرَّدًا (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن علي (٢) . و مما حدث عنه قال : « سمعت الشيخ أبا مدين يقول : رأيت من واصل ستة أشهر . - وقال : وذكرت عنده العقبات السبع المذكورة في كتاب منهاج العابدين فقال : رأيت من قطعها في السبعين عاما ورأيت من قطعها في ساعة واحدة مثلما قطعها ابراهيم بن أدهم و جاء التوفيق من الله تعالى . »

-
- ١ - من الطويل . راجع التشوف ، ص ١٠٨ .
٢ - هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري السقطي .
راجع التشوف ، ص ٥٢١ .

عَجِبْتُ لِمَنْ يُصِرُّ عَلَى الْمَعَاصِي ۝ وَيُنَجِّرُ مَا يَقُولُ الْآوَلِيَاءُ
تُقَصِّرُ عَنْهُمْ وَتَخْوِضُ فِيهِمْ ۝ فَلَا نُورَ لَدَيْكَ وَلَا ضِيَاءَ (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح الشهير أبو مسعود بن عريف (٢) من جبال شلف ، بأرض تلمسان . وكان مجاب الدعوة مشهور البركة وقبره بجبال شلف يزار ويتبرك به . وهو شيخ والد جدي للأم يعقوب بن عمران البويوسفي . فانه ارتحل اليه في صغره فأدبه وهذبه وأحسن تربيته وقربه وانتفع على يده وأمره بالانصراف الى وطنه . فأقام به زاوية ووجد ببركته مكانة سنية . وبها توفي في عام سبعة عشر وسبعمائة . وكانت ولادته في حدود الثلاثين وستمائة . وكان يحدث الناس بما يرى من موضعه في تلك الى قسنطينة (٣) وذلك مسافة مرحلتين . واشتهرت كراماته ولما بويع السلطان الشهير أمير المؤمنين أبو يحيى أبو بكر ابن الامراء الراشدين سنة احدى عشرة وسبعمائة بقسنطينة المحروسة وضع يده عليه في ذلك اليوم وقال له : « تطول مدتك ان شاء الله وتأمين من القتل . » وسماه المتوكل على الله . فكانت وفاة السلطان ، رحمه الله ، بعد ست وثلاثين سنة من مبايعته بعقب مرض يسير أصابه وتجديد توبته قبل نزول المرض به وذلك في شهر رجب سنة سبع وأربعين وسبعمائة . ولما دخل عليه عقب رؤيته هلال رجب المذكور قال : « لا اله الا الله ! دخل رجب ! » وكرر ذلك مرارا وأشار الى حضور أجله ونعتت اليه نفسه . ثم ركب وسار في

١ - من الوافر . راجع التشوف . ص ٩٤ .

٢ - ف : .. بن يوسف .

٣ - ك : وكان يحدث الناس بما يرى من موضعه تلك الى قسنطينة .

الأسواق وزار المزارات و صار يتكلم مع الناس (١) لأنه كان قبل ذلك قليل الظهور الى الناس . ففعل فعل المودع ولا أدري هل سمع ذلك من الشيخ أو من غيره من الفضلاء . وكان يقتحم الدخول في القتال ولا يحذر من ضارب ويقول : « سيدي يعقوب وعدني بالموت على سرير العافية . » وما زال السلطان ، رحمه الله ، يكرر ذلك . وذكره يوما لأطبائه حين اطلعوا على جراحة فاحشة في جسده وكان ، قدس الله روحه ، يكتب لجدي بعد وفاة والده يرغبه في الدعاء له عند قبره وكتابه عندي الآن . ودفع الحاجب الرئيس أبو عبد الرحمن ابن عمر لبعض تلامذة الشيخ ألف دينار دراهم في اليوم الذي بويع فيه السلطان ، رحمه الله ، وقال له : « أعط هذا السيد يعقوب ولا تدفعها له الا بعد سفره ووصوله الى زاويته . » فخرج الشيخ مسافرا . فلما لحقه التلميذ بالمال و صار مع الناس نحو الميل ولم يعلمه واذا بالشيخ حول وجهه وقال : « ما هذا الشوك الذي معنا في الطريق ؟ » فقالوا له : « وما الذي معنا ؟ » فوقف وهو يقول : « ما هذا الشوك ؟ » ويكرره . فأعلمه بالمال . فأمره برده الى ابن عمر وأنه لا يتعدى من ذلك المكان حتى يصل اليه . فرجع التلميذ بعد رد المال فقال : « بسم الله ! قد فعلت ما أمرتني به . » فتحرك الشيخ وقال : « الطريق الآن نقي : » وسقط له ابريق الوضوء من يده وتكسر . فوقف في ذلك ثلاثة أيام باكيا مستغفرا .

وحدث الشيخ عن شيخه أبي مسعود الحكاية المشهورة وهي أنه قال : « نمت ليلة قريبا من شيخنا أبي مسعود في خلوته . فسمعت

١ - كذا في ك ؛ وفي را : وكف يد مانع من يهدي اليه ؛ وفي ف : وكف يد مانع من يهد اليه ؛ وفي ق : وكف دمانع من يهد اليه .

كل شعرة تذكر الله تعالى بلسان فصيح . « وبه يتصل سند جدي
للأم يوسف بن يعقوب البويوسفي شهرَ الملاري (١) الى الشيخ
أبي مدين ، رضي الله عنه ، بمشيخته عن والده عن أبي مسعود هذا .
وأبو مسعود عن أبي مدين . فكان بينه وبين أبي مدين رجلا .
فسمعت ذلك عن جدي للأم سنة ثمان وخمسين وسبعمئة وقال :
« هذه بركة أشياخنا . » وسرد السند المستند اليه وهو : أبو مدين عن
أبي الحسن ابن حرزهم عن القاضي أبي بكر ابن العربي ؛ وتوفي
ابن العربي [بمغيلة ودفن] (٢) بظاهر فاس عام ثلاثة وأربعين
وخمسمائة وقبره بين المدينتين ، فاس القديم وفاس الجديد . وقد
وقفت على قبره . ولزيارته بركات . - عن أبي حامد الغزالي ،
وتوفي بطوس في عام خمسة وخمسمائة ؛ وكانت ولادته سنة خمسين
وأربعمئة . ولما صلى الصبح طلب كفنه ومسح به على وجهه وقال :
« مرحبا بالدخول على الملك . » واشتغل بالذكر والاستغفار الى أن
توفي قبل طلوع شمس ذلك اليوم وقال : « لا يصلي علي أحد حتى
يأتي رجل لا يعرف فيصلني علي . » فوضع على شفير قبره وانتظر
الناس به . فأقبل رجل ، عليه عباءة ، وتقدم وصلى بالقوم عليه .
هكذا ذكره السمعاني في كتابه المعروف بمنتخب الذيل (٣) .

ووقفت بخارج آرمور من بلاد المغرب على قبر أبي شعيب آرمور
المعروف بأيوب السارية . (٤) ومعنى هذا أنه كان اذا وقف في صلاة
النافلة غاب وهو منتصب كالسارية . فاذا أقيمت الصلاة ، جاء المؤذن
وصاح في أذنيه صيحة تسمع من خارج المسجد فيستيقظ من غيبته عن الناس

-
- ١- را : شهد الملار الى .. رب . شهر الملار الى .؛ ف : شهد الملا
الي .. ق : شهد الملار ؛ في ك : بياض .
 - ٢- زيد ما بين منعقفين عن ك .
 - ٣- راجع التشوف ، ص ٦ و ٧ .
 - ٤- التشوف ، ص ١٦٦ .

ويخفف في صلاته ويدنو مع المصلين . فقال لي الشيخ الصالح الفقيه الواعظ أبو القاسم الزموري في هذا الرجل هو الذي صلى على الغزالي . فطابق لي ما كان عندي مما وقفت عليه في منتخب الذيل . وأخذ الغزالي ، رحمه الله ، عن امام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن أبي محمد ابن يوسف الجويني امام الأئمة على الاطلاق . وكان هذا الامام قد جلس للتدريس في مكان أبيه وهو ابن عشرين سنة . وكان هاجر اليه الغزالي مع شبان من طوس و انتفع عليه ، نفع الله بهم . وتوفي في عام ثمانية وسبعين وأربعمائة . وكسرت المحابر والأقلام في ذلك اليوم مبالغة أنه لم يبق من يؤخذ عليه العلم . وهو من أصحاب أبي القاسم القشيري ، رحمه الله . وأخذ أبو المعالي عن أبي طالب المكي عن أبي القاسم الجنيد عن سري السقطي عن معروف الكرخي و هو الذي قيل فيه لأحمد بن حنبل : « ان معروفا قليل العلم . » فقال للقائل : « وهل يحتاج العلم الا لما وصل اليه معروف . » وأخذ معروف عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري . وكانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي ، صلى الله عليه وسلم . فاذا اشتغلت عنه بالخدمة وبكى عليها أعطته أم سلمة ، رضي الله عنها ، ثديها يمص فيه تشغله عن أمه . فظهرت العجائب عن لسانه من بركة أم سلمة . وأخذ الحسن البصري عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ودعا له وأخذ علي عن سيد البشر ، صلى الله عليه وسلم . هكذا سمعت هذا السند من جدي للأم يوسف بن يعقوب البويوسف . وكانت ولادته في عام ثمانين وستمائة . ووفاته في عام أربعة وستين وسبعمائة . وتوفي و هو جالس في مرضه يمسح بيده اليمنى في التيمم لصلاة العصر . ودفن بزاولته بجنب أبيه وحضر جنازته من لا يحصى عدده . وأعلمهم بسنة موته قبل ذلك بتدريج في التعريف مرة بعد أخرى وتوفيت زوجته جدتي بعده بشهرين . وأقام معها في الزوجية سبعين سنة بعشرة قويمة وهداية مستقيمة واعانة على الطاعة عظيمة . وكانت تربيته على يد والده . وحدث عنه قال : « أمرني والدي

في ابتداء أمرى بالاعتكاف في شهر رمضان وناولني في الليلة الأولى ثلاثين تمرة و في الليلة الثانية تسعا وعشرين تمرة . ثم ما زال ينقص لي واحدة في كل ليلة وما رأيت تشوفا لشيء في ذلك الشهر . « وأقام نحو من خمسين سنة لا يطلع عليه الفجر الا في المسجد أبدا الا في الضروريات البدنية . وكانت صفته التي داوم عليها ، وهي أسهل الأشياء عليه ، وعرفها منه الخاصة و العامة ، افساء السلام واطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام . و وضع الله له القبول عند الأمراء الراشدين ، رضي الله عنهم ، وأعانهم على ما يرضاه منهم ، وعند ولايتهم في قضاء الحاجات وقبول الشفاعات وكف المدعى عليهم بالجنائيات فكان يدخل بذلك على المكروبين المسرات . حضر يوما عند الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبي العباس ابن الأمراء الراشدين ، أعلى الله مقامه ، وأطال في العز دوامه ، بالجامع الأعظم من قصبته السعيدة بقسنطينة المحروسة بعد صلاة الجمعة وطلبه في حوائج قضاها كلها الا واحدة في تسريح مسجون تردد السلطان فيه و عسر عليه اطلاقه . فقال له الشيخ . بعد أن حبسه بيده من صدره ، قابضا على الثوب من هناك : « والله ان لم تطلقه لا خرجت عنك الا غير طيب . » فأبى من ذلك أيده الله أنه لا يطلقه . فانصرف الشيخ بانزعاج و بغير سلام . فنظر السلطان في الأرض . ثم حركه اعتقاده و فضله وتواضعه وقام وتبعه وأمر أخاه الأعز عليه أن يبادر اليه ليوقفه . ففعل ، وردده اليه بلطافة قول وليانة فعل . واجتمعا في الطريق ، فقال له السلطان ، نصره الله : « لا تأخذ علينا يا سيدي ونحن أولادك . » فقال له الشيخ بعد أن تبسم : « غيار الوالد علي الولد بالظاهر لا بالباطن . » ثم قضى له الحاجة التي توقف فيها وأخرى معها وانصرف . وسمعتة ، نصره الله وأبقاه يقول ، في مجلسه الأشرف ، بحضرتهم العلية تونس المحروسة : « ما رأيت بعد سيدي أحدا . » وهم ، نصرهم الله ، الحجة في مثل ذلك . و حدث عنه الفقيه ابن رضوان متعجبا غير ما مرة في مجالس عدة قال : « فلما قضينا

زيارتنا وأحضر لنا الطعام قرب لي الطعام الذي اشتهيته وحدي وهو يتبسم و رأيت في ذلك ما لاكنت أظن أني أقف عليه . »

وحدث عنه ابن أبي مدين في غير ما موطن قال : « أمرنا السلطان بالجلوس في فرجوية بقية عامنا . فشق ذلك علينا . فركبت الى الزاوية وأعلمت سيدي يوسف بما كتب به الينا السلطان و ما نحن فيه من الكرب بسببه . فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : « تنصرفون ان شاء الله تعالى . » فقلت : « متى ذلك ؟ » وانصرفنا بعد أيام يسيرة بكتاب آخر وصلنا و تعجبنا من ذلك . » وكان كثير العطفية . فرق مرة ، في مرضه ، على المحتاجين ، من أقاربه ومعارفه ألف دينار دراهم جديدة ، وثلاثمائة دينار ذهباً . جعل ذلك أكداسا تحت فراشه و لا يخرج الزائر المحتاج حتى يناوله بقدر حاله . وقسم سائر كسبه على ورثته . وليس ذلك في مرض موته . ولما كان يوم افاقته قال لأهله : « لم يبق لي الا ثوب عنقي . » وحمد الله على ذلك . وما أخذه الوارث لم يسترجعه منه . وكان ببركة الشيخ أبي مدين و ظهور عنايته من انتسب اليه تكرمه العلماء و الصلحاء والسلطين . ما يكتب اليه أحد من الأمراء الراشدين الا ويخصه بالسيادة . وكتب مرة لأمر مناهم في تسريح مسجون ، فسرحت كل من في السجن بسبب ذلك . وكان له تلاميذ مباركة واخوان مباركون . فمن تلامذة الشيخ الفقيه المبارك الصالح الولي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد عبد الله الصفار ، المدفون عندنا في المسجد الذي كان يؤم فيه ، داخل باب القنطرة من قسنطينة . أدركته صغيرا وتبركت به . ورأيت والده صفارا . وكانت لأبي عبد الله البركة التامة والكرامة العامة واختصه والدي ، رحمه الله ، لبناته ، يعلمهن القرآن ولم تفارقه احداهن حتى ختمت وكررت ثلاث مرات . وقرأت عليه الرسالة وانتفع بها والدي ، رحمه الله ، كثيرا في مقابلة الكتب ونحوها . وقالت لي احدي اخواتي : « ما رأيته رفع بصره يوما قط . و ما سمعنا منه كلمة في غير التعليم . واذا قربنا له طعاما ما يفطر

عليه ، تارة يقبله و تارة يرده بيده . « و كان يحدث عن جدي للأمام
ويكرر ذلك دائما ، أنه خرج لزيارته من باب القنطرة ، فناداه من
أعالي الرمال التي هناك ، وجدي في طريقه . فلما بلغه في اليوم التالي
بملازة وجدته تبعد عن الدار ، جالسا في الطريق وقال له : « من
حين ناديتني وأنا ننتظرك . « ولما قدم والدي ، رحمه الله ، من الحجاز خرج
الى لقائه وقال لبعض الفقهاء . « غرضي أن ينزل الخطيب عند بنت
الشيخ . « فانه كانت لوالدي زوجة أخرى في مكان آخر . فكان يتبعه ويرمقه
حتى رآه عدل الى دار والدتي . قال لمن معه : « الآن طابت نفسي . « وانصرف .
فانظر ، وفقك الله ، رعي هذه الحقوق واستعمال الخاطر فيها .
وكان يسعى في حوائج الناس ويختلف الى باب السلطان في ذلك .
وقال له الحاجب يوما : « أكثر من هذا فلا تعد ! « فسكت عنه ، فخرج
فلقيته امرأة وكلمته أن يرجع . فرجع في حاجتها الى الحاجب .
فأعلمه ، فحضى حاجته وقال له : « يا سيدي لا تتأخر عني في حاجة . «
وتبين له أن لا فرق عنده بين الحاجة التي تقضى والتي لم تقضى وكان
قد قدمه جدي للأمام ، رحمه الله ، على تلامذته بقسنطينة . وصدقت
فيه فراسته وظهرت عليه عنايته . وتوفي ، رحمه الله ، على أفضل حالة من
الطاعة و العبادة في عام تسعة وأربعين وسبعمائة . وقبره يزار ويتبرك به .
ومن تلامذته والدي ، رحمه الله ، الخطيب حسن ابن الخطيب علي
بين اللمعة (١) . صافحه وعاهده وسلك طريقته وساعده وقصد الله تعالى
في مصاهرته ، واعتضد بقربه ومواصلته ، وحدث متعجبا أنه لما انتهب في
ركب الحجاز حين قطعت عليهم لصوص الأعراب لم يسلم له الا المفرش
الذي دس فيه شاشية الشيخ مربوطة مع نفقة صالحة حدد بها رحلته .
و كان والدي ، رحمه الله ، يستعين بعارية كتبه في تدريسه للعلم

١- را : ... ص (٩) [بياض] ؛ رب : علي (٩) اللمعة ؛ ف :
علي بن بين (كذا) اللمعة ؛ ق : علي بن بين اللمعة ؛ ك :
علي بن [بياض] .

ويقاسمه فيما يترتب له على ذلك من حصول الثواب ونفي الاثم . و كانا مسرورين معا بمواصلتهما وقليل أن تقع مصاهرة في الصفاء كمصاهرتهما . وما زال والدي ، رحمه الله ، حافظا على عهده ، مشغولا بطلب العلم وتدريسه ببلده مقتديا بسمته بطريقة أبيه وجده حتى لقي الله تعالى بوسيلة العلم وروايته وسنده . وكانت ولادته في عام أربعة وتسعين وستمائة ووفاته في عام خمسين وسبعمائة وهو عام الوباء العظيم العام وكان ، في صحته ، أعد لنفسه جميع ما يحتاج اليه بعد الموت من كفن ونعش وتعيين نفقة وغير ذلك . وله في آدابه الشريفة وأحاديثه السنية ونكته السنية وأحكامه العلمية تأليف استحسنته من وقف عليه من أهل العلم . وكان مما أوصى به أن ترد البغلة التي أعطيت له أيام السلطان أبي الحسن المريني ليركبها . فردت على معطيها منه ، بعد موته ، عملا على انفاذ وصيته . ومما استحسنته منه جماعة من الفقهاء أنه لما قطع للشيخ الفقيه العالم المحقق الشهير أبي علي بن الحسين اللجائي ، شارح المعالم الدينية مُرْتَبَه سبب ما أذكره ، وذلك ببجاية ، بعث اليه والدي كتابا فيه أنه « قطع مرتبك ساءني ذلك و اني التزمت أداءه على قدره من مالي في كل شهر . » فكان يبعث اليه ذلك وكان أحب أفعاله اليه صدقة السر . وكان يتحدث بفعله فعلها والده ، ما أحسن القصد فيها ! (١) وهي أن والده ملكه جميع ربه الا دارا معتبرة أنفذها لنفسه ، فلما قرب أجله دفعها الى النداء وأمر بانفاذ بيعها فعجب والدي من ذلك بسبب أنه لاجحة الى بيعها . ففهم عنه وقال له : « أبقيت لك عددا من الدور والجنات والأرضين وغير ذلك مما تعلم ، وما أبقيت لنفسي الا دارا واحدة أريد

١ - را ، ك : مما أحسن القصد فيها .

أن ارتحل بها عنكم ، فلم تهن عليكم (١) ! » فقال له : « حاشا لله وانما توقفت لجهلي بهذا السبب . » فبيعت الدار بثمان معتبر وأوصى أن يتصدق بها على قبره يوم موته . ففعل وذلك سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة وكانت ولادته بعد أربعة وأربعين وستمائة وتردد في خطبة الخطابة مدة تقرب من ستين سنة . هكذا أخبرني بعض الفضلاء ، رحم الله الجميع بفصله .

ومن اخوان جدي للأم ، رحمه الله ، شيخ المريدين ، الشيخ الفقير الصالح السالك العارف المبارك أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف الأنصاري الأندلسي ، السراج ببلدنا . كان كثير الزيارة له بملازة وحريصا على القيام بحوائجه . وكان اذا سمع بقدومه يأتي الى منزل نزوله فيتفقد سرجه هل يحتاج الى اصلاح أولا . واذا احتاجت رقعها بيده . وكان والدي ، رحمه الله ، يستحسن منه نباهة (٢) أخوته . وكان هذا الشيخ أبو الحسن علي الأندلسي من الأتقياء الأصفياء وليس على فضله مختلف . وله سند الشيخ أبي مدين رضي الله عنه . وكان له معرفة بالتربية والمعية وأخذ في الأنوار الأمعية وكان له فهم و سلوك في معاني نظم السلوك وهي القصيدة التي منها :

لَأَنَّتَ مُنَى قَلْبِي وَغَايَةَ مَطْلَبِي

وَأَقْصَى مَرَادِي وَأَخْتِيَارِي وَخَيْرَتِي (٣)

وهي للأمام أبي القاسم عمر بن علي السعدي المعروف بابن الفارض وكانت ولادة ابن الفارض سنة ست وسبعين وخمسائة بالقاهرة ، وبها توفي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة . وجاور بمكة عشرين سنة و مات على

١ - ف ، : فلم لا تهن عليكم ؛ ق : فليم لا تهن عليكم .

٢ - ف ، ق : نهاية

٣ - من الطويل .

أفضل حال فكانت للأندلسي بها دراية . وكان حديثه في الطريقة
نهاية . وله محبة في نظم الشيخ الصالح الزاهد العابد الولي المحقق
المكاشف الشهير أبي الحسن علي الششتري ، رحمه الله . وكانت وفاة
الششتري بدمياط سنة ثمان وستين وستمائة . وهو من معارف جدي
للأم . وتوفي شيخه أبو محمد عبد الحق ابن سبعين بمكة سنة تسع وستين
وستمائة . وظهرت للأندلسي الفراسة والكرامة . وكانت له عند الخواص
مكانة وكرامة . وتوفي ، رحمه الله ، بقسنطينة في حدود ستة وأربعين
وسبعمائة و دفن بخارجها في وجه الكدية وقبره هناك معروف عند
الأفراد من الناس وقد أخفاه الله تعالى حيا وميتا كما هي عادته في
كثير من أوليائه .

ومن اخوان جدي للأم ، رحمه الله تعالى ، وأقربهم اليه الشيخ
الصالح الحاج المبارك الفقيه السالك أبو هادي مصباح بن سعيد الصنهاجي
والعامة تقول له عبد الهادي واسمه في البادية يشو . قد يقال انه
من المغرب . وأخبرني من يقبل قوله من الشيوخ أنه من عرب برقة
وارتحل الى المغرب . والشهرة أنه من العرب ولبسانهم كان يتكلم .
وارتحل الى المشرق . وجاور بمكة والمدينة مدة وكان له بها مجاهدة
وعبادة . و انتقل الى بلاد افريقية بعد أن هم الاقامة في برقة وفي
طرابلس بضم الباء واللام . وتردد هناك وتبعته بافريقية التلامذة .
وظهرت بركته . وكان معظما عند السلطان و عامة الناس ، وكانت بينه
وبين الفقهاء منافرة . وله مجلس معروف مع فقهاء تلمسان وبخهم
هو وزجرهم السلطان عنه . وأراد قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد
ابن عبد السلام الهواري التونسي شارح ابن الحاجب توبيخه لنزوله
بجامع الزيتونة من تونس [ورقصه] (١) بتلامذته في صحن الجامع ولغظ بما
يفعل ثم كف لسر رأه من أحوال الفقراء . وكان اذا رأه والدي ،

١ - الزيادة بين منعقفين عن ك .

رحمه الله ، سأل عن حاله وقرر له محبته فيه وبأسطه وسأله عن حال والدتي يقول له : « كيف هي بنت الشيخ ، ما زالت فقيرة ؟ أم رجعت فقيهة ؟ » فيجيبه أنها على الوجه الذي يريده ، ويضحكه . وكان يحفظ جملة من مسائل الفقه وبعض غرائبه . وكان يؤول ما يسمع من المسائل العلمية الى معنى التصوف بالوجه المستحسن . وكان كثير الصلاة جدا يتكلم مع الزائر ، ثم يركع ركعتين ثم يعود الى الكلام تارة وتارة . وكان كثير الذكر ، وله أورد مقرر . وكان لتلامذته أوقات من الذكر جماعة بعد أخرى . وكان ينفرد عنهم في أكثر الأوقات . وكان قليل الأكل . وكان له رأي نافذ في تدبير الدنيا ولذلك كانت القواد تستشيريه . وكان أرفع ثيابه برنسة ويستتر جسده بما تيسر . وأعطى مرة ثيابه التي عليه لرجل و تستر بما استعار ، حتى غسل له طرف من جلال فرس ولبسه . وكانت له في السفر راحلة تشبه راحلة القواد من قيطون و خباء وآلة طبخ و كلاب صيد . وكان لا يركب الا جياد الخيل . وتلوث الألسن فيه في حياته واتفقت على فضله بعد مماته . أخبرنا شيخنا الفقيه القاضي الشهر المحدث المرحوم أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس ، وتوفي سنة سبع وثمانين وسبعمائة و سنه يقرب من تسعين سنة ، أنه لم يعتقد الا بعد أن لقي أختيارا بالحرم الشريف تعرف منهم مجاهدته هنالك وعبادته وذلك بعد موته . وقال لي أيضا : « رأيت مرة ما أخبرك به . وذلك أن السلطان أبا الحسن المريني أراد أن يبني مدرسة بقسنطينة فتحدث في شراء دار . فقيل له : ما ثم أليق من دار اشتراها أبو هادي . وكان قريب العهد من شرائها ، قال : وكلفني السلطان أن أتحدث معه في أن يوليها له بأي ثمن شاء . - قال : فدخلت على المحلة بسبب الكلام فيها . فأنساني الله ذلك واشتغل السلطان ولم يكرر علي في أمرها . ورأيت أن ذلك من بركته . » ولما وصل الخبر بنزول السلطان أبي الحسن المريني متوجها الى بلاد افريقية خرج الشيخ أبو هادي

مسافرا من قسنطينة ، فبات عند جدي للأم رحمه الله ، بزأويته
 بملازة . فبعد فراغهما من وظيفة صباح تلك الليلة قال الشيخ أبو هادي :
 « أريد أن تتحرك معي الى هذا السلطان ونتعاون في الكلام معه
 ليرجع عن هذه البلاد . » فسكت عنه . فكرر عليه الكلام وقال له في
 أنثائه : « لعلك خفت . » فقال له : « والله ما خفت ، لكن المانع
 الأعظم عندي أن يقول لنا : لا ، فلا فائدة في الكلام . » فقال له أبو
 هادي : « اذا قال لنا : لا ، نقول له نحن : لا . » ورفع صوته بذلك
 ثم قال له : « سلمت لك في الجلوس ولا تنسنا بباطنك وأعطني سرجك
 نركب بها . » فأخذها وانصرف وقدم على السلطان أبي الحسن
 ودخل عليه فقال له : « ما حاجتك ؟ » فقال له : « حاجتي أن ترجع
 وتترك البلاد لأهلها . » فقال له : « هذا لا يمكن ، فاطلب غير ذلك . »
 وتلطف له السلطان حتى رأى أنه لا طلب له الا هذا أعرض عنه
 وانفصل المجلس وكل واحد منهما غير طيب بما وقع . وعرض السلطان
 فيه بالقول بعد انصرافه وقال : « هذا أحقق . مثلي يصد وطريقتي كذا ،
 وشأني كذا ولي من القوة كذا . » ورجع الشيخ أبو هادي الى
 قسنطينة وصرف أكثر أتباعه [وتحمل في نفسه] (١) ولازم خلوته ولغظ
 كثير من الناس أنه متوجه الى الله تعالى في السلطان المذكور . و كان
 من عاقبة السلطان بأفريقية ما كان من الفساد وذلك بعد موت
 الشيخ أبي هادي بأشهر . وكان بعض الصالحين يقول : « صدقت
 لا من الجانبين » .

ومن أشياخ الشيخ أبي هادي عبد المؤمن أبو لقمان من جهة
 مراکش من اخوان طائفة أبي محمد صالح وكانت لعبد المؤمن هذا أحوال
 أخبرني بها بعض فقراء المصامدة أن له معرفة تامة بكتاب البوني في
 أسرار الأسماء ، وسمع عنه الفقهاء بمراكش أشياء أنكروها ، فأحضره

١ - را : وتحصل في نفسه ؛ ك : سقط ما بين منعقفين .

يوما للسؤال والبحث عن سبب ما يصدر عنه من الأحوال ، فقال لهم :
« أنا أعرفكم بسبب ذلك . أنا مع ربي بالباطن وأنتم معه بالظاهر . »
فتركوه وسلموا له وكان معاصرا مع الشيخ أبي زكرياء يحيى بن أبي
[عمر بن] (١) عبد العزيز الحاحي . وكان كل واحد منهما غير طيب
بصاحبه ولا حاجة لي في استيفاء هذا .

وكان الشيخ أبو هادي يتردد في بلاد أفريقية . و أكثر استقراره
بقسنطينة وحوزها . وله نوادر في طرف الكلام ويبسط ببعض الكلمات
المضحكة . وكان يقبل عطاء الأمراء وجوائز العمال ويطلب ذلك ويوسع
به على المحتاجين من تلامذته . و منه أقام زاوية ببلاد أفريقية وله
في ذلك مستند في الشرع معروف و شاركه في الأجر من أعانه عليه من
الأمراء الراشدين ، رضي الله عنهم . وكان ، رحمه الله ، موقرا لجدي
للأم في أخوته وكثير المحافظة على محبته . وضع يده عليه يوما
بمحضر الناس وتلامذته وقال لهم : « هذا أحد أشياخي . » وقال الشيخ
لتلامذته أيضا : « من عاهدني فليجدد عهده مع أبي هادي . » وما كان
بينهما افتقار الى الاستئذان في أخذ ما يحتاج أحدهما من حوائج الآخر .
وما زالت بينهما المداولة في ذلك . وكان كثير الزيارة له بملازة . وحدث جدي
لمن سمعته منه قال : « زارني أبو هادي مرة فبات عندي و اعتزلنا عن
الناس في المسجد بالليل ، وليس معنا ثالث ، والباب مغلق علينا فشاهدنا
في أحيائنا ليلتنا ، والله ، أحوالا عجيبة وأمورا غريبة ، لا ينبغي التحدث
بها . » وكان يقول : « ينبغي أن يعتقد . » وكان كثير الترحم عليه .
توفي ، رحمه الله ، بقسنطينة بعقب مرض أصابه عالجه منه الأطباء سنة
ثمان وأربعين وسبعمائة . ودفن بالزاوية المعروفة باسمه . ورفع كثير من
متروكه لبيت المال أيام المريني لأنه لم يظهر له وارث . و كان أشهد
قبل موته أن كل ما يتركه صدقة لطلبة العلم والمنقطعين للعبادة .

١ - زيد ما بين منعفين عن ف ؛ والصواب : عمرو بن عبد العزيز .

واشهاداه بذلك يدل على أنه لا وارث له . ودفن بعده بجنبه امام الفريضة
 به و أحد تلامذته ومن ظهر بعده باسمه الشيخ المبارك الصالح العاقل
 التالي للقرآن أبو عبد الله المغربي سنة تسع وخمسين وسبعمائة .
 ومن أكابر أصحاب جدي للأم ، رحمه الله ، وعليه اقتصر لأن
 الغرض الاشارة الى انتشار بركة الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ،
 وعلى تلامذته وعلى السالكين سبيل هدايته ، وظهور بركته عليهم
 وعنايته ، الشيخ الامام العالم المحقق المدرس المفتي الصالح الشهير
 قاضي الجماعة ببجاية أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي المسفر ،
 شهير الذكر رفيع القدر ، رقيق القلب ، غزير الدمع . لقي الشيخ الفقيه
 الشهير أبا الحسن الصغير المغربي الذي ينسب اليه شرح المدونة . وتحدث
 معه في الفقه ، و رد عليه كلمة ملحونة . فلما فارقه أبو الحسن قال
 لأصحابه : « بما يدرك هذا ؟ » فقالوا : « بمعرفة كتاب الفصيح
 لثعلب . » قالوا : فحفظه في ليلة واحدة . وهكذا كانت همم الرجال .
 وكان للمسفر ببجاية مجلس للعلم معروف باجتماع الفقهاء والفضلاء
 وانصلحاء وهما معا من أصحاب الشيخ الصالح العالم الشهير أبي علي
 ناصر الدين منصور بن أحمد المشدالي . وتوفي ناصر الدين ببجاية في
 صفر عام واحد وثلاثين وسبعمائة وسنه لحق المائة . حدث جدي للأم
 غير ما مرة قال : « كلفني السلطان أمير المؤمنين أبو يحيى أبو
 بكر أن آخذ في الصلح بينه وبين أبي حمو ، صاحب تلمسان . فترددت
 في ذلك حتى أشاور ناصر الدين فاجتمعت به . فعند ما رأيته قال
 لي من غير أن أكلمه : « لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة
 أو معروف أو اصلاح بين الناس . » وسمعتة أيضا يقول : « كان عندي
 رجل من الصلحاء الأخفاء البلهاء . فقال لي ناصر الدين : سمعت أن عندك
 رجلا يخدمك ، شأنه كذا وكذا . فقلت له : هو علي خير عظيم ، لكنه
 يفر من الناس . فقال لي : بحق ما بيننا من الأخوة الا وجهت وراءه .
 فبعثت اليه فحضر وخمل ثوبه وانزوى في نفسه منقبضا فقلت له :

ابسط نفسك ! فتبسم ثم قال له ناصر الدين : ادع لي . فقال له الرجل :
 اسأل الله ان ينفعنا بك . فقال ناصر الدين : آمين . وكررها وهو
 يبكي . « و توفي المسفر في سنة أربع وأربعين وسبعمائة وله املاء
 عجيب على بعض مختصر الامام أبي عمرو بن الحاجب في الفقه . وله
 القصيدة الطويلة البديعة الجليلة التي سماها نظم فرائد الجواهر في
 معجزات سيد الأوائل والأواخر ، صلى الله عليه وسلم ، ومطلعها :

تَبَدَّتْ فَعَابَتْ وَأَخْتَفَتْ فَتَجَلَّتْ

فَشَاهَدْتُنَا حَالِي حُضُورِي وَ غَيْبِي (١)

وله شرح على أسماء الله الحسنى ، وله كلام عجيب في التصوف ؛
 وله تقايد في أنواع فنون العلم ؛ وله شعر فائق . وخط رائق . وكان من
 فصحاء الفقهاء في جوابه في الفتيا . وكان ، على مكانته العلية وسيادته
 السنية ، يتولى قضاء حوائجه من السوق بيده . وكان لعلمه وأمانته ،
 وفصاحته وديانته يتوجه في الرسائل السلطانية . وكان كثير التواضع
 حسن الملاقة . وهو على الجملة ممن يحصل الفقر بلقائه وصحبته ،
 وينال الخير بدعائه وبركته ، رحمه الله ونفع به . عاش جدي للأم
 ورافقه وصافحه في الله تعالى وعانقه وزار معه الشيخ أبا مدين ، رضي الله
 عنه ، في توجههما لسعي المصالح بين المسلمين و ذلك في عشرة الثلاثين
 وسبعمائة . وكانت بينهما مكاتبة سنوية محتوية على معان عليية . وزاره
 بزائوته بملاحة وأتحفه جدي مرة بمائة دينار ذهباً . ذكر لي غير
 واحد أن المسفر تعجب من سماح الشيخ له بهذا القدر . ومعاني كتبه
 له تدل على فضله ومحبته في أهل الطريق وقوة نبذه . فمنها كتاب
 وقفت عليه بخطه رحمه الله ، نصه :

١ - من الطويل .

أوله : بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد
و على آله وصحبه وسلم تسليما

زَارَتْ وَقَدَّ فَعَلَ النَّوَى أَفْعَالَهُ
صَبًّا رَأَى فِي وَصَلِهَا آمَالَهُ
يَا أَهْلَ بَابِلَ قَدْ شَغَلْتُمْ بِآلِهِ
بِكُمْ كَمَا أَشَغَلْتُمْ بِبِلَالِهِ
فَتَحَذُوا لَكُمْ عَنْكُمْ بِكُمْ حَتَّى يَرَى
مِنْكُمْ سَوَاءً هَاجِرَهُ وَ وَصَالَهُ (١)

الوحشة ، لا أوحش الله منكم ، الالتفات ، ولو بالسر ، الى السوى ؛
والفرقة التفريق من الوصل والهوى . فالأول اعراض عنه والثاني
طلب الحظ منه . والعبودية اخلاص التسليم والايان بقلب سليم . رزقنا
الله و اياكم الوفاء بالعهود وبلوغ المقصود بمنه . وليعلم سيدي أبو
يعقوب أن كتابه وصل وكنت على شوق له ؛ فجدد عندي ما لم يندرس ؛
وأكد عندي ما لم يلتبس ؛ وتبركت به وتأنست بوروده . وطلب مني
موصلة الجواب . وكان غرضي أن أطيل الكتاب لأنه عندي مناجاة معكم
وملافاة بكم ولكن أعجل الظمان قبل تمام ربه [وغيلان قبل مشاهدة
ميه] (٢) والأمل مرافقتكم والتبرك بكم . ويا سيدي أبا يعقوب
اذكروني ولا تنسوني ؛ فاني أطلبكم وجميع ساداتي الفقراء بالمواساة
التي بنيتم عليها طريقتكم ولتعلم أني محب فيكم و ما جزاء من يحب
الا أن يحب ؛ ولا تقطعوا عني مكاتبتكم ، فان لي فيها اعتقاد بركات

١ - من الكامل . وجاء البيت الثاني في را وك كما يلي
يا أهل بابل بالله اشتملتم بكم كما اشتملتم بل باله (كذا)
وفي رب : يا أهل بابل بالله شغلتم بكم كما شغلتم ببلاله
٢ - ك : سقط ما بين منعفين .

واغتنام دعوات . والله تعالى يعيننا واياكم على الاخلاص في الأعمال
ويبلغنا من فضله و جوده جملة الآمال . والسلام عليكم و على جميع ساداتنا
الفقراء ورحمة الله وبركاته . »

ووقفت له ، رحمة الله عليه ونفع به ، على كتاب آخر للجد ، فيه
فصول كثيرة من فصول أوائله : « محمد المسفر ، لطف الله به ، يسلم على
سيدي أبي يعقوب بن سيدي يعقوب ، نفع الله بهما ، وأعاننا على القيام
بواجبهما ، ونعلمه أن الذي يعلمه من حبه واعتقاده فيه وخلصه في ولائه
وتصافيه لم يزل على ما يعهده ويتفقدته بذمته وتعهدده . »

ومن فصول هذا الكتاب : « ومحبتكم يشاهدكم بما جلوتم
ببركاتكم (١) [من مداته] (٢) ويقطع بذكركم طيب أوقاته ويجد عنده
أثرة فقدكم اياه بباطنكم السليم وبركاته . وأما شوقه الذي يرح
واعتقاده فيكم الذي لم يبرح فأكثر مما تعرفه و فوق ما أصفه . ولولا عذر
وصولي لم ينب عن قربي قلبي وعن مشافهة خطابي توجيه كتابي .
فباطني عامر بزيارتكم وشوقي كثير الى مجالستكم ومحادثتكم . والله
تعالى ييسر أسباب اللقاء و يجعلنا ممن أطاع واتقى . وكيف لا أشتاق
الى لقاءكم وأنتم ممن نرجو بركته دنيا وأخرى وأعتد بمحبته في الله تعالى
وسيلة نافعة وذخرا . »

ومن فصول هذا الكتاب : « و ان من ملاطفة سيد الصوفية ومعاتبته
القدرية تنبيهها على جبر (٣) وقتي بمكاتبته واخفائه في ذلك باطنا في
ظاهر معاتبته . فهو بعاتبني عني ويشير خطابه الي مني . وهل مكاتبتم
الا لطائف روحانية ، و مصالح دينية تحض على الخير وتندب اليه وترشد

-
- ١ - ك : بما جلوتم من بركاتكم .
 - ٢ - ك : سقط ما بين منعقفين .
 - ٣ - على صرف وقتي ...

الى سبيل البر و تدل عليه ، جوزيت عن حبيب في الله تعالى خيرا و أقامنا
الله تعالى في الخير سرا وجهرا . « والى غير ذلك من فصوله .

وفي آخر هذا الكتاب : « يسر الله لنا أسباب قربه وعمر قلوبنا
بذكره و حبه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . »

وله اليه فصل من كتاب آخر : « أبقى الله سيدي أبا يعقوب يوسف
ابن سيدي يعقوب عامر المغني رائق المعنى . المملوك محمد المسفر ،
لطف الله تعالى به يتوسل اليكم بما بينه وبينكم من صادق ود وتأكيد
عهد و حب في طريقتم و انتماء لكم و لفريقكم أن تجعلوا باطنكم و خاطركم
معه في كل الأوقات باغتنام التفكير والدعوات . »

وله اليه فصل من كتاب آخر : « العبد الفقير محمد المسفر ، لطف
الله به ، يرغب من سيده و شيوخه أبي يعقوب يوسف بن سيدي يعقوب
أن يتعهد (١) مجذب أرضه بطيب دعواته و يتفقد وقت الفقير بخاطره
وبركاته . فما زال يعلق آماله بساداته الفقراء ويستجدي منهم في ورده
وصدره الزاد والقرى . ولم يزالوا يواسونه في فقره و يتلطفون في اصلاح
خلله و جبره . ولم لا ؟ وهم الأطباء والأساة و أهل الخير و المواساة ، نفع
الله بهم و ضاعف بمنه في حبههم و ما أشوقني يا سيدي الى مشافهتكم
و مجالستكم ! و لو تيسر لي الطريق في زيارتكم و أنا حريص أن تتفقدوني
من أوقاتكم (٢) فأنا فقير الى مواساتكم . والسلام عليكم و على ساداتي
الفقراء ورحمة الله وبركاته »

وله اليه كتاب آخر مقتضاه العذر والاستغفار عن تقصيره في تأخير
كتبه عنه وهو جواب كتاب الجد له نصه من أوله الى آخره :

١ - وفي ف و ق : ان يتعمد ؛ ولعل الصواب : يتعهد وفي رب
و ك : أن يعمر

٢ - ك : ان تتفقدوني من أوالي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم تسليماً

جَمَلًا وَّ إِنِّ أَفْرَطْتُ فِي التَّقْصِيرِ
جَمَلٌ آلَاذَى مِنْ شَأْنِ كُلِّ كَبِيرِ
وَ أَنَا جَنَيْتُ وَجِئْتُ مُنْكَسِرًا وَمِنْ
خُلُقِ التَّصَوُّفِ جَبْرٌ كُلِّ كَسِيرِ
وَ بِيَاطِنِي قَدْ قُمْتُ مُسْتَغْفِرًا (١) لَكُمْ
فَهَبُوا (٢) بِيَاطِنِيكُمْ قَبُولَ فَقِيرِ (٣)

إذا أحكمت الطريق بواطن الأحباب ، وقامت بما للمحب من وظائف
وآداب ؛ و صحت (٤) روحانيتها ظلمات الحجاب ، اندرج في رأي البصيرة
رأي العين ؛ وارتفع الفرق بين القرب والبين (٥) ؛ فحينئذ من يرى
القرب زيادة في حبك ؟ والبعد أن يشتغل عنك ولو بملاحظة قربك . وكيف
يشتكي البعد من يتوسم نسيمه في كل وسيم ، ويجد طيبه في نفحة كل
نسيم ، ويذكره مع طاعن ومقيم ؟ فالحب - زاد الله في معنك وعمرك
باللطائف السنوية مغناك - فناء في بقاء وبقاء في فناء ، وحالة لطيفة يخفى
عنده الفرق بين ناء و دان . فان بقيت بين المحب بقية تمدها لطيفة نور
اللمعية فهم معنى دوام المعية و معنى الجمع في الفرق والفرق في الجمع .
وكيف احتجاب الشفع عن الوتر بالشفع فينشد بلسان حاله لا بمقاله :

- ١ - هذا الشطر مضطرب الوزن ؛ جاء كذا في كل المخطوطات
وقد زدنا بين منعقفين لفظة لكم ليقوم الوزن .
- ٢ - في جل المخطوطات : فلتهبوا ؛ في ك : فلتنهبوا (؟) .
ولعل الصواب : فهبوا .
- ٣ - من الكامل .
- ٤ - كذا في كل النسخ .
- ٥ - ك : وارتفع الفرق بين العين والقلب .

وَ غَتَّى لِي مَنَى قَلْبِي ۞ فَغَتَّيْتُ كَمَا غَتَّى
وَ كُنَّا حَيْثُ مَا كَانُوا ۞ وَ كَانُوا حَيْثُ مَا كُنَّا (١)

فان أخذه محبوبه عن نفسه وأذهله عن معقوله وحسه ، خرج
مطلوبه عنه الى اختيار مطلوبه ولم ير محبوبه الا لمحبوبه فتخاطبه نتائج
الطريقة عند الاستغراق في بحار الحقيقة .

نَمَى الْمُهَيَّبُ يَرَى عُلوَّةَ ۞ وَقَدْ شَاعَ فِي حَبِيهِ وَصْفُهَا
أَعَارَتْهُ عَيْنًا يَرَاهَا بِهَا ۞ فَكَانَ الْبَصِيرَ لَهَا طَرْفُهَا (٢)

ايه يا أبا يعقوب ! افهم رقة الزجاجة [والحمل] (٣) . فمثل روحانيتك
الحافظة لآداب الفقر يفهم معناها الدقيق ، ويخرق وان عز حجابها الرقيق .
فهنيئا لك ان وافيت الطريق ورعيت فيه حق المصاحب والرفيق ؛ وجبرت
وقت كاتبها الفقير بخاطرك ؛ وشفعت باطنك الصافي بظاهرك فتنفصلت في
الكتاب مرة بعد أخرى ولم تبق لي عن التقصير في حق جوابكم عذرا ؛
ولم تنتقل عن اعتنائك لعنائك ولم تخرجني على جفائي عن أحبابك ؛ ولا
أقول : ان لي عذرا بل أقول : غفرا غفرا فأنا ظلمت نفسي ، وندمت
اليوم على تقصير أمسي ؛ والندم توبة وكم أزالته وحشة الغيبة أوبة .
وقد قمت في غيبتكم مستغفرا بباطني والطريق أمانة وأنا أرتقب
لحق الظاهر مكانة ، فأحط الرأس مستغفرا وأقوم بطريق سادتي
الفقرا ، واقبالكم المقرون بالقبول مأمول وربكم بالفضائل مأهول . والحمد
لله تعالى والله سبحانه يمد نورانية أبصارنا بأنوار فتحه وينسخ ليل
البعد بتباشير نهار القرب وصبغه ويحفظ أوقاتنا باستحضار اسمه
الرقيب ويعين كلامنا على ما يجب لأخيه في المشهد والمغيب . ويبلغنا من

١ - من الهزج .

٢ - من المتقارب .

٣ - ك : سقط ما بين منعقفين ؛ وفي ف : واحمل .

فضله آمالنا ويحمل همنا مآلنا بمنه وفضله . والسلام عليكم وعلى من
بحماكم ومن شمله نظركم من الفقراء وأنتم واسطة عقدهم ومصطفى
عين وردهم لترتيب وردهم . من العبد المقر المفتقر في وروده وصدوره
المنكسر قلبه بتفريطه فيما مر من عمره ، محمد المسفر ، لطف الله به
وأفاض علينا من بركات أهل الخير في حاله ومنقلبه بمنه وفضله ، ورحمة
الله وبركاته . « انتهى .

ولا نطول بذكر كتبه إليه ؛ فقد وقفت على رزمة من مكاتبتة إليه
وهي كلها تدل على محبته في الفقراء ومباطنته لهم ، وميل نفسه اليهم
واقتراحه عليهم واندراجهم في سلكهم وتمنيه أن يكون في بسائط حضرتهم
وكفى به الحجة في مكانة المكتوب إليه ومحاسن الطريق والأخذ
في معاني أمور التحقيق . وكل ذلك من بركة الشيخ أبي مدين ،
رضي الله عنه ، والانتساب إليه . فتلامذته أهل الصفا وهم محفوظون بالله
تعالى وما من مؤذ لهم الا و يلحقه ضرر ما . والمشاهدة في فصول ذلك كافية .
وقد حكى الفقيه أبو الربيع المديوني ، رحمه الله ، أنه وصل بعض أهل
المكاشفة الى بعض من تلامذة الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، فانكر
عليهم أمورا من احوالهم . فأعلموا الشيخ أبا مدين ، رضي الله عنه ،
بذلك فقال لهم : « سيسلب ما يجد (١) من المكاشفة . » فسلبها
الرجل ، والعياذ بالله ، بتغيير قلب الشيخ أبي مدين عليه لانكاره على
تلامذته ، وصار واحدا من العامة . نسأل الله العافية . فهذه عاقبة
من مقامه المكاشفة فأحرى غيره . وقد ظهر ببلادنا رجل مغربي يقال
له علي المغربي وهو المدعو بالمظلوم المدفون بمقربة من بجاية ، وذلك
قبل الثلاثين وسبعمائة . وكان معه جمع كبير فكان بعضهم يقدح في
تلامذة الشيخ أبي مدين و يصرح بأشياء . سمعت جدي للأم ، رحمه

١ - ف : ما يوجد ؛ ك : سيسلب من المكاشفة . وفي التشوف : فقال
لهم : سيسلب ما وهب . فسلب المكاشفة ... راجع ، ص ٣٢٢ :

الله تعالى ، يقول : « ركبت اليه من موضعي و نهيته عن شيء سمعته وأمرته بالانفراد ونصحته في الله تعالى . فسبق قدر الله تعالى أنه لم يقبل . و شكاه به الى بعض الولاة من أعجل . ف ضرب عنقه و فرق جمعه . » قلت : و فضلاء الفقراء لا يسلكون هذا الطريق ولا يتعصبون في سد باب التحقيق لأن المؤمنين اخوة في الدين ولا تقع المناصرة الا من ضال جاهل . فان الأصل البدار الى الهداية بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ، عليه السلام ، والتعاون على ذلك على يد من شاء الله تعالى من الأشياخ المهديين المعلمين .

وما كانت طريقة الأشياخ الا الحرص على مثل ذلك كالشيخ أبي محمد صالح ، رحمه الله ، و نفع به . و انه كان اذا جاءه الفقير عرفه بعيوب نفسه وأمره بالوحدة ودرجه في أوراده حتى يصير من أهل المجاهدة . و انتفع كثير من الناس على يده وبركته . و شيخه أبو محمد عبد الرزاق الجزولي (١) من كبار تلامذة الشيخ أبي مدين . و قبره قرب الاسكندرية و أما قبر الشيخ أبي محمد صالح فقد وقفت عليه بأسفي سنة ثلاث وستين وسبعمائة و رأيت هنالك أحفاده . و هذا البلد آخر المعمور في الأرض من الجانب الغربي و يرده أهل الله تعالى . و رأيت هنالك من الاخيار كثيرا . و أكبر الحفداء حينئذ سنا و قدرا الشيخ الصالح المسن الحاج الشهير المعظم أبو العباس أحمد بن يوسف . له معرفة لسلفي . و قال : « صليت الجمعة بقصبة قسنطينة خلف جدك . » و أخبرني الثقة أن له ثماني عشرة حجة و أما هو فكان يكتم ذلك . قدمت عليه يوما في وقت تعذر عليه فيه الطعام . فدعا بعسل مصفى وحله بالماء وسقاه لي بيده المباركة . بيني وبينه مواصلة ربانية من كل وجه . و كانت له أوراد لا يفارقها بوجه و كأنها في وقتها كالخمس في وقتنا . و كان يتحدث بالأمور المستقبلية في أحوال السلاطين ويقع ما يتحدث به . و كانت له

منزلة عليّة عند الأمراء والأخيار . ولم يذكر التادلي أبا محمد صالح ذكر استيفاء وإنما أشار إليه في بعض المواضع من كتابه فمنها في أوله حيث قال : « وقد شرعت في تصنيف هذا الكتاب في شهر شعبان سنة سبع عشرة وستمائة ولم أذكر فيه أحدا من الأحياء . قال : وأكبر من في وقتنا هذا حي الشيخ الصالح الصوفي أبو محمد صالح بن ينصارن ابن غفيان الدكالي ثم الماجري نزيل رباط آسفي . قال : وهو [الي] الآن لايفتر عن الجهاد والمحافظة على المواصلة والأوراد . قال : ومن كلامه : الفقير ليس له نهاية الا الموت . قال : وحدثني عنه تلامذته بعجائب الكرامات . » (١) وذكره أيضا حين عرف بابي ابراهيم اوادار ، (٢) نفع الله به . قال هنالك : « وأبو محمد صالح ما زال يزوره . » وذكره أيضا حين ذكر عبد الرزاق الجزولي قال : « وهو شيخ العبد الصالح أبي محمد صالح وهو حي الآن . » قلت : أخبرني غير واحد أن الشيخ أبا محمد صالح لقي الشيخ أبا مدين ، رضي الله عنهما ، وأخذ عنه . وهذا ، والله أعلم ، صحيح لأنه كان معاصرا معه وملازمته للخير قديمة أو يكون أخذه عنه بالواسطة في الابتداء ودلني على صحبته له أن الفقيه القاضي الشهير أبا العباس أحمد بن أحمد الغبريني البجائي ذكر في كتابه عنوان الدراية أنه أخذ علم التصوف عن الشيخ الفقيه الصالح الولي أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم السجلماسي عن الشيخ أبي محمد صالح عن أبي مدين بسنده . وتوفي الغبريني آخر سنة أربع وسبعمائة . قال الغبريني رحمه الله : « أخبرني ابن أبي القاسم هذا أنه خدم الشيخ أبا محمد بالمغرب مدة ، منها أربعة أعوام ، على صفة المحرم . قال : وازاري في وسطي وشملتني على كتفي . وكان اماما في

١ - التشوف ، ص ١٣ .

٢ - كذا في النسخ ونحن نظن أن الصواب كما في التشوف : أبو ابراهيم بن اسماعيل بن وجماتن من أهل آدار (ص ٣٥١ و ٣٥٢) و أوادار بالبربرية معناه المنسوب الي آدار

التوحيد ، وقبره بقلعة بني حماد مزور . » ووقفت أنا بأسفي ، عند بعض أحفاد الشيخ أبي محمد صالح ، على كتاب مجموع ، فيه المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وبداية الهداية ، والرسالة القشيرية بشرحها وعقيدة الجبراني ، و فرائض الصلاة للصقلي . كل ذلك بخط الشيخ أبي محمد صالح : وكتب في آخر الكتاب ما هذا نصه : وكان الفراغ من ذلك على يد العبد الضعيف ، الفقير الى رحمة ربه أبي محمد صالح بن ينصارن بن غفيان بن الحاج يحيى بن يلاخت (١) عشية يوم الاثنين وهو التاسع من شهر شعبان ، عام أربعة وثمانين وخمسمائة . وعلى ظهر الكتاب مانصه : اللهم يا حي ! يا قيوم ! يا ذا الجلال والاكرام أسألك بأسمائك الحسنى كلها ، ما علمت منها وما لم أعلم ، أن تغفر لي ذنوبي وتحسن عوني على طاعتك وتيسر لي أسبابها . فاني لا أملك [لنفسى] (٢) نفعاً ولا ضراً وأنت العالم بذلك بجودك وكرمك ، يا رب العالمين . وتحت ذلك بخطه ، نفع الله به وبأمثاله بمنه وكرمه :

سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ
وَأَخُو الْجَيَالَةِ مُنْعَبٌ مَتَحَزُونٌ
فَلَعَلَّ مَا يَتَحَشَّأُهُ لَيْسَ بِكَائِنٍ
وَأَلَعَلَّ مَا يَرْجُوهُ سَوْفَ يَكُونُ (٣)

وفي تاريخ نسخته ، رحمه الله ، لهذا الكتاب كان الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه ، ببلاد افريقية وبعده استقر ببجاية .

وقد سألت عن جملة الطوائف التي هي بالمغرب الأقصى في الأرض التي تنبت الصالحين كما تنبت الكلاء، فوجدتها متعددة باعتبار تعدد الأشياخ.

١- ك : .. بن بلاخت .

٢- را ، ك : سقط ما بين منعفين .

٣- من الكامل .

و أقرب ما ترجع اليه ستة : الشعيبيون ، و هم طائفة أبي شعيب
آزمور من أشياخ الشيخ أبي يعزى .

والصنهاجيون من طائفة بني أمغار من بلد تيطنظطر من أقران
أبي شعيب .

والماجريون ، وهم طائفة أبي محمد صالح ، ومنهم الدكاليون .
والتائفة الرابعة ، الحجاج ؛ أي لا يدخل في جمعهم الا من حج بيت
الله الحرام . وقد دخلت دار شيخهم وتمتعت بلقائه و اغتنتم فضيلة
دعائه . قصده شاب منقطع للعبادة ذكر له أنه ابن زفان وطلبه في
مكان يأوي اليه وحده . فأعطاه غرفة على باب داره وأتاه بالطعام
بعد صلاة المغرب فقال له : « ياسيدي ارفعه عني فان قوتي بعد أربعين
يوما وبقي علي من المدة كذا وكذا . » ورأيت عند هذا الشيخ غرائب
وعجائب .

والتائفة الخامسة الحاحيون . ومنهم جملة من جبل درن وهو
الجبل العظيم الذي ليس على وجه الأرض مثله في الارتفاع والمياه والخصب .
وقد دخلت اكثره وكان العالم الأرضي بأسره منحصر فيه . وهو من
عجائب الدنيا . و أعظمه قبلي مراکش . وهذه التائفة الخامسة طائفة
الشيخ الحاج الشهير أبي زكرياء يحيى بن أبي عمرو عبد العزيز بن عبد
الله بن يحيى الحاحي (١) ويقال انه من آل بيت النبي الكريم
وشرفه غير ظاهر بين الناس في المغرب . وانما انتسب أحفاده اليه .
وقبره بتيغزا من بلاد حاحة . ولم أصل الى ذلك المكان وبقي بيني
وبين تيغزا في وجهة غربية بانحراف الى القبلة عن مراکش نحو
المرحلة فأراد الله بالرجوع . والموضع موضع خير وعلوم وقراءة وتدريس

١ - را : .. أبي زكرياء بن أبي عمر عبد العزيز بن عبد الله
ابن يحيى ؛ ك : أبي زكرياء يحيى بن أبي عمر

وكذلك الموضوع القريب منه المعروف بآدقي (١) (بالقاف المشددة) وأكثر اعتناء الحاحين بالتهذيب والفرائض والحساب . ولم أذكر تاريخ وفاة الشيخ أبي زكرياء يحيى الا أن ظهوره كان في آخر المائة السابعة ووفاة أبي مدين أو الشيخ أبي محمد صالح فغير صحيح لبعده الزمانين (٢) . و أحفاده وأصحابه يقولون شيخه أبو القاسم البكري وشيخ البكري أبو سعيد ، وشيخ أبي سعيد الشيخ أبو مدين . بينه وبين أبي مدين شيخان . هذا قول المحققين من أحفاده وطائفته وغير ذلك ملغى . وقد رأيت من رأى من رآه . وكان لأبي زكرياء هذا عند الجمهور قبول تام وله في الفقر كلام حسن وتحقيق وتدقيق ووصايا حسنة بكلام لا يصدر الا عن عالم أو ولي وكذب أكثر الناس خصوصا العلماء انفراده بالأحوال في طريقته . وتعالى الجهلة من تلامذته في تعظيمه وتحقيقه وشدة اقتنائهم بجزئياته وتغليظه وترقيقه وقوة انقباضهم عن خرج عنه في تغريبه وتشريقه أو ركن الى غيره في المعينه وجمعه وتفريقه . وهذا هو موجب ضلال جهلتهم ، وهو السبب فيما صدر عن العلماء في مشيختهم . وفي طائفته أختيار صلحاء ، فلا تظن الناس كلهم سواء . وقد دخلت تانشناشت (٣) وهي موضع فريق من حفدته في أحواز مراکش ، سنة ثمان وستين وسبعائة . و لقيت بها أخيارا ورأيت فيها شيخا منقطعا في مغارة للعبادة والناس يتبركون به ولا ينصرف أحد حتى يناوله سماطا من تحت رأسه . وأفضل الحفدة حينئذ الشيخ الصالح الفقيه أبو الحسن علي بن عبد الله بن موسى بن أبي زكرياء و يعرف بابن الشيخ . دخلت داره وأقمت عنده واستحسن عشرتي وما كاد يطلقني . و رأيت له دراية لكتاب ابن الحاجب في الفقه . وما رأيت في الظاهر ما أنكره بوجه .

١ - را : بتادقي

٢ - كذا في كل النسخ ولعله سقطت جملة كانت تؤدي هذا المعنى . ان أبا زكرياء الحاحي لم يلتق بأبي مدين لان بن وماتيهما مائة سنة .

٣ - كذا في را ، ق وك ؛ وفي ك على الهامش : تانشناشت ؛ ف : تانشناشت .

وكان هنالك حينئذ طالب يدعو على ظالم بعقب كل ختمة يختمها . أخبرني الشيخ أبو الحسن هذا أن معه على ما أخبره ستمائة ختمة . وكان ذلك الظالم في أشد صولته . وكنت أرقب عاقبته حتى علمت عن قرب أنه سجن وقتل نفسه ، والعياذ بالله ، في السجن بالخنق . و أخرج و دفن من غير أن يصلي عليه أحد من المسلمين ، و لم يحضره الا من حمله وحده .

أما الطائفة السادسة فهم الغماتيون وهم طائفة الشيخ الولي الشهير أبي زيد عبد الرحمن الهزميري ولهم أخوة محدثة بطائفة أبي زكرياء وسائر الطوائف لهم أخوة بطائفة أبي محمد صالح . وقبر أبي زيد هذا داخل باب الفتوح من أبواب مدينة فاس في روضة الأنوار بإزاء جامع الصابرين . وقد أدركت كثيرا ممن أدركه . أخبرني بعض شيوخ عدول مراكش أنه رآه على ظهر بهيمته وهو على جنبه وقد شد عليها بشريط لضعفه و كبر سنه والناس يتزاحمون عليه ويمسحون وجوههم بطرف ثوبه ويجذبه كل واحد منهم اليه والخدمة به دائرون . وكان أعجوبة في زمانه . يتحدث دائما على ما في ضمائر الناس ولا يعين أحدا بالفضيحة وانه يقول : مثل رجل فعل كذا في مكان كذا . و أخبرني شيخ أشياخنا في المعالم السماوية والمسائل الحسابية الشيخ الامام الصالح أبو العباس أحمد بن محمد ابن عثمان بن البناء العددي المراكشي ، وكانت وفاته في عام أحد وعشرين وسبعمائة ، أنه ما زال يقصده في حل المسائل العلمية التي تشكل عليه من الهندسة وغيرها قال : « وما زلت أمضي اليه فأجد الازدحام عليه فنسمع جوابي في طرف الحلقة وننصرف من غير سؤال [مني اليه] (١) . » حدثني غير واحد ممن لقيت من الأعلام أن انتفاع ابن البناء في علومه ومنزلته الدينية والدنياوية انما كان من بركة الهزميري لأنه بلغ في دينه النهاية وفي دنياه الغاية .

١ - زيد ما بين منعقفين عن ك .

حدثني قاضي الجماعة بمراكش الشيخ الفاضل المتخلق الحافظ لسيرة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أبو زيد عبد الرحمن القيسي ويعرف بطالب عافية أنه أراد أن يقرأ عليه علم العروض . قال لي : « ولا دريت هل له معرفة به أم لا . وفكرت في نفسي كيف يكون سؤالي عن ذلك . فدخلت عليه ، وهو في حلقة العلم وأنا في قلق من ذلك . فجلست ثم سمعته قد رفع صوته وهو يقول مثل ما يقول العروضيون كذا وتكلم في فن العروض . فعلمت أنه معي . » وما زال رحمه الله ، يحدثني بهذه الحكاية و تدمع عيناه في أثنائها . وهذا الشيخ أول من قرأت عليه فن المنطق بمراكش . وكان من الفضلاء . حضر في مجلس علمه طالب أعرفه . فصار يعترضه و يقول : « كفر هذا الشيخ في كذا . » فخرج في عمالة سلطانية وخرج معه عدوي يبلغه الى المكان الذي خرج اليه ويعلمهم به على عاداتهم في تنفيذ أوامره . فلما كان في مفازة من الأرض المراكشية أصابه شيء مات منه . فنظر [المراكشي] (١) العدوي في أمره ، وبعد العمارة منه فأتى به الى مزبلة دار خربة وشق حفرة بركيز مزراقه ودفنه هنالك من غير غسل ولا صلاة . فلما بلغ خبره لهذا الشيخ قال : « لا اله الا الله ، رجل استهزأ بالناس ، فاستهزأ الموت به . »

وحدثني قاضي الجماعة بفاس الفقيه المرحوم أبو محمد عبد الله الأوربي وهو ممن رأى الهزميري قال لي : « خرج أبو عبد الله الكومي المراكشي في قافلة يوما قاصدا الى زيارة الفقيه أبي عبد الله البقوري مكمل اكمال المعلم قال : « فدخلت عليه فوجدته بين كتبه على التراب وعليه مرقعة غليظة وعرقه يقطر . فجلست عنده ساعة ثم خرجت الى زيارة ابن البناء . فخرجت الي وصيفة خماسية قالت : من هذا ؟ قلت : قل له : الكومي . فأعلمته وأذن في دخولي . فوجدته في

١ - ف ، ق : سقط ما بين منعقنين .

قبة رياضه الذي أحدث بناءه بمراكش وعليه ثياب كتان من عمل تونس
وفي القبة أقطعة ومخايد (١) وعليها حجاب حسن . فسلمت عليه وجلست .
فنادى الخادم وأشار اليها [فقدمت آنية بالسكر وأخرى بالبطيخ] (٢)
فقال لي : « ادن . » فدنوت وقلت في نفسي : سبحان الله كيف تركت
البقوري ووجدت هذا الرجل . فقال لي : « اسكت و دع الفضول لو
كان البقوري في هذا المقام وأنا في مقامه لاختل حال كل واحد
منا . »

وكان الكومي من الفضلاء المشهورين بمراكش بالخير والصلاح .
وحدثني أيضا هذه الحكاية شيخنا الفقيه الثعالبي أبو العباس
المراكشي الشماع بفاس المحروسة بالمدرسة التي يؤم فيها بالطالعة من البلد
المذكور . وقال لي « انتفع بالهزميري كثيرا . » كان شيخنا في العلوم
السماوية الشيخ الفقيه أبو زيد عبد الرحمن اللجائي ، وهو ممن قرأ
عليه يحدث عنه بالغرائب . قال : « وسبب قراءتي عليه أن والدي كان
يشدد علي درس الفقه والأخذ بطريقته لأن والده من فقهاء فاس وهو
أبو الربيع اللجائي ، من تلامذة القرافي وهو أول من أدخل مختصر
ابن الحاجب في الأصول الى المغرب وعنه أخذ . قال لي : رأيت في النوم
أنني صعدت الى السماء وأنا أقلب النجوم واحدا بعد واحد . فانتبهت
وأعلمت والدي من ساعتني فسكت . فلما أصبح ناولني نفقة وقال لي :
اخرج الى مراكش واقصد ابن البناء واطلبه في علومه . ففعلت . »

وكان اللجائي آية في فنونه ومن بعض أعماله أنه اخترع
اسطرلابا ملصوقا في جدار و الماء يدير شبكته على الصفيحة
فيأتي الناظر فينظر الى ارتفاع الشمس كم هو وكم مضى من النهار
وكذلك ينظر ارتفاع الكوكب بالليل . وهو من الأعمال الغريبة . وقد

١ - كذا في المخطوطات ؛ ومخايد صيغة عامية .

٢ - ك : فقدمت الأطعمة والسكر والبطيخ .

وقفت عليه زمان قراءتي بين يديه . وقال لي : « ما وجدت الا بركة ابن البناء وما وجد ابن البناء الا بركة الهزميري . » وقد ألف بعض فقهاء مراكش وهو الفقيه المقرئ أبو عبد الله بن تيجلات ، رحمه الله ، كتابا حسنا في فضله وفضل أبي عبد الله أخيه . وحدثنا الثقات أنه كان يوما في مجلس اقراءه يتكلم في مسألة . فتكلم رجل من طرف الحلقة فيها معه فلم يجبه والرجل لا يعرف ، وعليه مرقعة ، ونظر اليه الحاضرون نظر استهزاء . فقال له الرجل : « يا فقيه أدرك أمك ، فقد حضر أجلها . » ثم قام وطار في الهواء . فعجب الحاضرون من ذلك وقام ضجيج في المجلس وغشي على الشيخ ساعة وانصرف الى منزله . فوجد أمه منتظرة اليه وكانت من الصالحات . فقالت له : « يا ولدي حضر أجلي وأردت حضورك وأعياني انتظارك . » فجلس عندها حتى قبضت . ولما فرغ من دفنها خرج عن الدنيا وانقطع الى الله تعالى وبلغ أمله في مقامات الأولياء . وجاهد مالم يجاهد غيره . فمن مجاهدته أنه أمر ببناء باب البيت عليه و أنه لا يحل عليه الا بعد ستة أشهر ولم يدخل معه غير الماء وحده وسئل بعد خروجه عن حاله قيل له : « كيف كنت في هذه المدة ؟ » فقال : « كالملت ، الا أنني أجد قوة عند الصلاة . » ونبلد آغمات وقفت على قبر أبي عبد الله هذا ، والناس يتبركون به ويتزاحمون عليه .

وتوفي الشيخ أبو زيد عبد الرحمن الهزميري ، نفع الله به ، في حدود سنة ست وسبعمائة . والدعاء عند قبره مستجاب ، والى الوسيلة بقبره يلجأ من حدث به كرب هنالك . وسميت روضته روضة الأنوار لأنها جمعت من أولياء الله تعالى كثيرا ، وهو في وسطهم . وآخر من دفن فيها ، في غالب ظني ، الشيخ الصالح أبو العباس أحمد المكتاسي شيخ الغماري الذي أخذ عنه والدي ، رحمه الله ، رواية نافع في القراءة وحدثه ابن برج ابن بري عنه عن مؤلفه ؛ هكذا وقفت عليه بخط والدي ، رحمه الله ، في حدود سنة سبع وأربعين وسبعمائة . وقبره يتبرك به .

و رأيت بعض من يعيش بالحرام أخذ في تجديد قبر الشيخ أبي زيد الهزميري ، رحمه الله ونفع به . فنهيته وقلت له : « سألتك بالله ألا تكدر عليه ! » فأبى وجدده بالجير فبعد مدة ضربه السلطان ونزع ما بيده من المال وندم على [ما فعل بعد] (١) ما كلمته به ودثر ما صنع على قبره ولم يبق له أثر .

وسبب حركته من آغمت قضاء حاجة يطول شرحها من السلطان أبي يعقوب المريني وهو في حصاره العظيم ، لتلمسان بعد سبع سنين . هذا ظاهر أمره وفي الباطن يريد أن يصرفه عن ذلك الحصار ويكفه عما انتهى إليه المحصورون من الشدة لأنه بلغ ثمن الدجاجة عشرة دنانير من الذهب للقوت لا للدواء وكان للفار ثمن معتبر لا أذكره الآن . فلم يقبل منه فرجع الى فاس ونزل بجامع الصابرين ، وهو موضع مبارك يأوي إليه أهل الفضل والصلاح . فبعد أيام قتل السلطان أبو يعقوب و غرب جيشه بسلطان آخر . فقال له خديمه ظننا منه أنه ما أقام الا ليرغب الله في الفرج : « مات السلطان أبو يعقوب ففرج الله على تلمسان فيسم الله تأخذ في الحركة . » فقال له : « و عبد الرحمن يموت . » بتشديد الميم يعني بعبد الرحمن نفسه فمات بعد أيام يسيرة . ودفن هنالك ، رحمه الله ونفع به .

وقد أخذت طريقه عن ولي الله تعالى الحاج أبي العباس الدكالي عن ولي الله تعالى أبي زكرياء يحيى الغماتي عن الهزميري نفع الله بهم . وكان يقول : « نشفع في كل شيء الا الموت . » وتنازع الفقهاء بمراكش في الحوض و الصراط أيهما يسبق . فلجأ أحدهم اليه قال : « فلما سألته نظر الى السماء واتسعت عيناه اتساعا عظيما ثم قال : الجنة ، الميزان ، الحوض . و يشير بأصبعه الى السماء . فأعلمت بعض الفقهاء بذلك فبكى وقال : ليس الخبر كالعيان . »

١ - الزيادة بين منعقفين عن ك .

وكانت له أحوال عجيبة . قال لي بعض الصالحين : « ما أظن أن يكون أحد بعده كحالهِ في طريقتهِ وعجائبهِ . »

ولقد حضرت مع جملة من هذه الطوائف مواطن عدة منها زمان اجتماع فقراء المغرب الأقصى ، على ساحل البحر المحيط ، جوف اقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطننطر ، ومعنى هذا الاسم : عين باردة ، زمان قضائي بدكالة . وهي أرض مستوية طولها مسيرة أربعة أيام وكذلك عرضها . ووجدت فيها خمسة وعشرين مدرسا . وبلغت أزواج حراثتها ، زمان ورودي عليها ، عشرة آلاف و بعض حيوان فيها من انسان وغيره زائد على مثله في قدره . وليس بها نهر ولا عين الا آبار طيبة دخلها القاضي أبو بكر بن العربي ، رضي الله عنه ، بعد رجوعه من العراق وعجب من قلة مائها وكثرة خيرها . وقال : « رأيتها أنبتت ثاني يوم المطر (١) . وكان الاجتماع في شهر ربيع الأول المبارك الأسعد الأنور ، سنة تسع وستين وسبعمائة . وحضر من لا يحصى عدده من الفضلاء . ولقيت هناك من أختيارهم وعلماهم وصلحاتهم ما شردت به عيني بسبب كثرتهم . ومما يدل على نهاية كثرتهم أن بعض أصحابنا الدكاليين الراغبين في الدعاء اشترى لهم بثلاثين دينارا ذهباً عنبا وحده من جنة رجل ولم يكفهم لكثرتهم ؛ سألت يومئذ عن قيمة العنب فقيل لي : « قفة بدرهم كبير . » وهو ثلث الدرهم الجديد التونسي . ووردت عليهم أصحاب العلل المزمنة كالمقعدين وغيرهم . ورأيتهم يتزاحمون في حلق الذكر ، والمريض يتضرع ويرغب في صلاح جسده كأنه يطلب قوته ؛ فيقوم من يأخذ بيد المريض ويصرفه وقد رجعت اليه صحته . ومنهم من يضربه بطرف كسائه فيقوم كأنه حل من عقاب ؛ ثم يختلط الرجل الذي يفعل ذلك بالقوم ولا يعرف شخصه . وهذا كنت أسمعه حتى رأيتهُ ، والله ، عيانا . و رأيت ولدا قريب الحلم سيق

١ - ك : ثاني يوم نزول المطر .

الى حلقة الذكر وفي ركبتيه تشنج يابس جدا رق عظمه منه ولا يستطيع
مد ساقيه معه . فقام اليه رجل رقيق أصفر اللون ؛ فسمعت آخر
خلفي يقول له : « ليست هذه قوتك . » ينكر عليه مبادرته للقيام
وكونه لم يترك ذلك لمن هو أفضل منه . فنظر اليه ، و سكت عنه ،
وأتى الى الصبي ، وأنا أرقبه و مسح بيده علي ركبتيه ومد له ساقيه فامتدا
وخفف الله عنه و فرح الولد وضحك لقوة سروره بصحته الا أنه لم
يكمل برؤه وصدق قول من عارضه . و لا أدري عاقبة الولد . ورأيت
في ذلك المجمع العظيم والمشهد الجسيم غرائب وعجائب لا يرى مثلها أبدا
لتغيير الأحوال بعد ذلك .

وهناك لقيت الشيخ أبا الحسن بن يوسف الصنهاجي من آيت
محبوب . ولي فخر عظيم بلقائه واغتنامي لبركته ودعائه . وكان
ضخم البدن جدا ولا تكف له دمعة . اذا سمع آية من كتاب الله عز
وجل أو حديثا من حديث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أو بيتا من
شعر أو كلمة صوفية ، وضع كفيه على عينيه وأخذ في البكاء والزيادة
فيه حتى يخاف عليه . وقلت لبعض الفضلاء منهم : « هذا الولي لا يموت
الا بالبكاء ! » لما رأيت منه . وكان من عباد الله الصالحين وأعرف أهل
صنهاجة باقراء التلقين . وله تلامذة في الفقر . وكان اذا حدث
له البكاء تصيب أهل المجلس خشية عظيمة وتدمع عين كل واحد منهم (١) .
حضرت معه ذلك غير ما مرة . وبت معه في جمع خاص من الفقراء والفضلاء
على ساحل البحر المحيط ، ليلة ، وكانت من الليالي الغريبة ، لو أخذت
في وصف جزئياتها لطال كلام الكتاب لذلك . وكان اذا رأني ، وقف
وضمني الى صدره ويجيل بيده المباركة على ظهري ويبكي حتى يخاف
عليه ولا يطلقني الا بعد ساعة وتصيبني أنا من مهابته وشدة حاله

١ - ف ، ق : ويرمقه كل واحد منهم .

قشعريرة ، ويرى الحاضرون أنه حصل لي حظ عظيم بذلك . وبكى مرة
بكاء شديدا لمنشد قال :

إِحْفَظْ خَلِيلَكَ لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيمَنْ خَانَ أَوْ غَدَرَا

إِنَّ الْخِيَانَةَ لَا تَخْفَى وَإِنْ كُتِمَتْ
كَذَلِكَ اللَّحْبُ لَا يَخْفَى وَ إِنْ سَتِرَا (١)

وقصد بعد هذا التاريخ زيارة امرأة متعبدة ضريرة . فجلس في فم
الغار الذي كانت منقطعة فيه . فسلم عليها ورحبت به . ثم كلمته
بكلام شهق منه شهقة واحدة فمات . فقالت المرأة : « أركاز . »
للرجل الذي يخدمه ، وكان واقفا مع فرسه ، فقال لها : « نعم . »
فقالت له : « ارفع عني صاحبك ، فإنه مات . » فجاء وجذبه وحمله على
الفرس و سار به الى منزله وشاع هذا بالمغرب ، وتعجب منه كل من
سمعه وتشوقت الخواص الى سبب الموت و وقع البحث عن ذلك فأقرب
ما قيل أنها كلمته في أمر نبوي كشف له ببركتها عنه فمات عند معاينته ،
نفع الله به وبها ، وأعاد علينا من بركته .

هذه عمدة الطوائف الكائنة بالمغرب الأقصى و ثم تلامذة ملحقة وخواص
محفقة و أفراد من الناس على سنن المتقين ومنهم عباد الله المحققون رأيت منهم
أعدادا و عرفت من أعيانهم أجوادا . و أول من رأيت منهم الشيخ الصالح
العالم المحقق العابد أبو الحجاج بن عمر امام جامع القرويين بفاس
ويحيي فيه ما بين العشاءين أبدا قائما . وله أوراد مقدره و مجالس لقراءة
العلم و التصوف . و توفي ، و قد بلغ من السن مائة ، في سنة احدى وستين
وسبعمائة . و صلي عليه بعقب صلاة الجمعة و حمل ولم يبلغ الى قبره
من كثرة الزحام الا بعد غروب الشمس . و وقف موقفه ولده الشاب

١ - من البسيط .

الصالح العالم الولي أبو الربيع سليمان . ولي به معرفة وأخوة من مجلس العلم . وكان من كبار الصالحين ومن أهل الكرامات و فر من الامامة وانقطع لنفسه وأخذ عليه في ذلك كثير من أصحابه و كنت أنا ممن أخذ عليه . و رأيت فر من طاعة . فبينما أنا أتكلم على ذلك مع بعض أصحابنا واذا برجل من الطلبة أقبل و بيده كتاب فقلت له : « ما هذا ؟ » قال : « الطالع السعيد في تاريخ السلطان أبي سعيد . » فأخذته ، فأول وقوعي (١) على سنة . فقال فيها : وفي هذه السنة تاب فلان لرجل سماه من امامة جامع القرويين . - قال : والسبب في ذلك أن رجلا ممن صلى خلفه قال له : سمعتك نونت الميم من السلام عليكم فقال له : انما قلت : السلام عليكم بضمه واحدة على الميم و أشهدكم أنني تائب من هذه الامامة . » فقال له الشيخ الولي الشهير أبو محمد الفشتالي ، نفع الله به : « شرفتنا شرفك الله ! » فاستغفرت الله تعالى من أخذي عليه وظهر لي أن هذه كرامة له .

وقصد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني زيارة أبي الربيع سليمان هذا . فجلس في جامع القرويين بعد صلاة الجمعة وكلف قاضي الجماعة أبا محمد الأوربي أن يجمعه به . فقام باحثا عنه فلم يوافق على ذلك . فجاءه برجل آخر من الصالحين اسمه سليمان على اسمه يعرف بسليمان ادي (٢) العيون وهو من الأخيار فقال له وزيره « ما بهذا كلفت . » فقال له القاضي : « هذا مبارك ومن أشياخه . » وفصل به المجلس وعدت للقاضي سياسة حسنة . وطلبه السلطان مرة أخرى فكتب له براءة قنع بها السلطان عن رؤيته . وقلت لبعض أصحابنا « هلا رأى السلطان ؟ ففي رؤيته تفريج كرب . » فقال لي : « والله لا رأيت أبدا . » وكانت له البركة التامة في انقطاعه للعلم

١ - ك : فأول وقوع نظري على سنة كذا .

٢ - كذا في را ، ف ، ق وفي ك : ذي العيون ؛ وفي رب : اد العيون

والعبادة ولا رأيت أحسن قراءة ولا أسرع منه فيها لحديث النبي ، صلى الله عليه وسلم . وتوفي على أحسن حال وأبلغ منال وأحمد سيرة ، سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، وسنه يقرب من أربعين سنة .

ورأيت منهم بفاس ، وهو حي الآن ، الشيخ الصالح الزاهد أبنا عبد الله محمد المشنزائي من أرض دكالة . وهو من الزاهدين في الدنيا ومن خيار عباد الله الصالحين . ويغلب على ظني انه يحفظ احياء علوم الدين لكثرة ذكره لمسائله ويسحر الناس بحلاوة لسانه وفي تذكيره ويحملهم على التدريج والخروج من الدنيا فيتمثل أكثرهم أمره . ورأيت لباسه تليسا ولا يجلس الا على الأرض بغير حائل ولا يوسد الا الحجر . وما رأيت في بيته زيادة على أوراق من الكتب . ونقرت يوما عليه الباب وكان في ركن بيته مع جمع من الفقراء فرفع صوته وقال : « ادخل يا أبا العباس ! » فدخلت وعجب الحاضرون من ذلك . وأكثر أكله من المباح المطروح في الأرض من خبز و بقل . ولقي يوما غلاما أسود فقال له : « من تكون ؟ » فقال : « خديم لرجل . » سماه له . فقال : « وأين هو ؟ » فقال له : « مات . » فقال له : « أ يخدم أحد من يموت ؟ » فصاح الغلام وهدهاه الله على يده .

و جعل الصناع يذكرون الله على أشغالهم وكان يقول لهم : « ما يضركم أن تحركوا ألسنتكم بالتسبيح في أشغالكم . » ولي معه ، رحمه الله ، مجالس وغرائب وكان يوادعني اذا سافر ويكتب لي في مغيبه . ولقيته يوما في وسط سوق باب السلسلة من مدينة فاس . فوقف معي يسألني عن حالي ثم التفت الى فوال فطلب منه الفول فأعطاه كفا منه فقال لي : « بسم الله . » فتراخيت واستربت ممن يحضر فعزم علي في ذلك فقهرت نفسي وأكلت معه في كفه الأيسر حبة بعد حبة في وسط السوق ولم ينظر الي أحد بقدرة الله تعالى ولم يحضر من يتحدث عني بذلك . فلما فرغنا منه سره ذلك مني فقبلني في رأسي ودعا لي وانصرف . ودخل عنده يوما قاضي الجماعة بفاس يزوره فقدم اليه يسير

طعام عليه ادم . فأكل القاضي معه لقيمات و رفع يده ينظر ما يمسحها به . فقال له : « أراك تجل ذلك الحرام الذي عليك أن تمسح فيه . » فبادر القاضي ومسح في ظاهر ثوبه من جهة صدره . وقيل لي ان السلطان قصد زيارته فوقف اليه وفتح يسيرا من الباب وقال له : « مالك عندي ؟ انصرف بالعافية ! » و دخل الباب وغلقه [دونه] (١) وهو الآن ، نفع الله به ، يتردد من جزيرة الأندلس الى أحواز فاس وسبته وأكثر لبثه في الرباطات أبقى الله بركته بمنه .

ورأيت منهم بفاس ، وهو حي الآن بها ، ولي الله الفقيه الزاهد الورع أبا عبد الله محمد الجناتي من أهل العلم والصلاح والزهد والورع والفلاح . وكان يبرني كثيرا ويدعو لي ولباسه فيما رأيت اما عباءة من تليس أو جبة من صوف ولا يغطي رأسه الا في زمان البرد وكان دائما يطالع احياء علوم الدين وما كان فيه سير الصالحين . واذا سمع موعظة يصيح صيحة يبقى لها أثر في الهواء . وما رأيت ضاحكا قط وما رأيت رافعا بصره في طريق قط . رافقته بالمغرب ثمانية عشر عاما لم تختلف علي في هذه المدة حالته بوجه . وكان عيشه من ضفر يضفره من العزف وكان في بعض الأوقات يجلس قبالة باب دار السلطان يتأمل في الداخل والخارج ولا أدري له قصدا في ذلك سوى التفكير والاعتبار . ولا يقبل من أحد شيئا الا ممن يعرفه بعلم أو صلاح . وكان اذا أراد أن يتنفل بعد صلاة الجمعة يخرج من باب من أبواب الجامع ويدخل من آخر ويتنفل . فكان يبادر الى خدمة الغريب المريض ويسعى في أمره . وكان الصلحاء يطعمونه والفقهاء يبرونه والعامّة ترمقه وتشير اليه وهو الآن على أكمل حال نفع الله به .

ورأيت منهم بفاس الشيخ الصالح أبا الحسن علي اللجائي . ولي به معرفة ويفتقدني ويسأل عن حالي كثيرا وهو ألبين الفقهاء

١ - زيد عن ف ما بين منعقنين .

معاملة وأعذبهم كلاما . اذا جلست معه لا تريد أن تفارقه . وله سعي في حوائج المسلمين وتفريق الصدقات على الفقراء والمساكين . و كان يأخذ في إيصال الحقوق ونصر المظلوم ويدعى اليه الغريم كما يدعى الى الحاكم ولا يتخلف بوجه . والعلماء ينتابونه وكان يجري على المحتاجين منهم بالنفقة المرتبة اليومية . قلت لبعض الصالحين : « من أين عيشك ؟ » فقال لي : « من نفقة أجراها علي اللجائي : يأتي بها في عشية كل يوم . » وكذلك كان مع غيره . ويوفي بما يلتزم في ذلك ويسر الله له في قصده . وما زال يعين من احتاج منهم الى التزويج وصناعته الخياطة . وكان كثيرا ما يجلس الاحياء ولباسه جبة صوف أبيض الى أنصاف ساقيه . وله مجاهدة وعبادة واذا رأته تعرفه بسمته . وكان يمشي بعض الأوقات حافيا في الطين في حوائج الناس أو في تغيير منكر و يدخل مجالس الأمراء بحالته . فاذا قضى حاجته غسل رجله وانتعل وكان محسودا فيما سناه الله له من طاعة الامراء له وخضوع الوزراء ، مقولا فيه كثيرا بسبب ذلك ، ضاعف الله أجره ونفع به .

ورأيت منهم بفاس ، وهو حي ، الشيخ الصالح العالم أبا علي الرجراجي (١) من أولياء الله تعالى وصدور العلماء . وشهرته بالصلاح أكثر من شهرته بالعلم . لازمته وقرأت عليه كتاب الحوفي في الفرائض . وحضرت معه مجالس العلم وانتفعت به كثيرا . و كنت أقصده في بيان ما يعسر علي فهمه . فاذا وجدته بالجامع الأعظم وقصدته بالسؤال يجلسني بيده حتى يجلسني مع السارية ويجلس هو بين يدي كأنه هو السائل وذلك من تواضعه واحتفائه . وتبني يوما بعض أصحابنا الطلبة فقال لي : « ما الذي يقرأ عليك عمر ؟ » لما رأى من هيبته في جلسته ، نفع الله به . وكنت اذا راجعته في مسألة علمية يسكت عني حتى يطلعني على ما قال هو في كتاب من الكتب ويبسطه بين يدي

١ - اسمه عمر .

و يشير الى المحل باصبعه من غير أن يقول لي شيئا . و رأيته من ورعه وتحفزه أنه لا يحبس الكتب التي تنسب الى قوم و ليست هي لهم كشرح الرسالة المنسوب للجزولي وشبه ذلك . وكان في أكثر أوقاته يخلو بنفسه ولا يعرف أحد أين هو . و ما زال يباشر جسده بتليس ويستتره بجبة . و عيشه من حبك البرانيس في بعض الأوقات وغلة دويرة ورثها من أبيه . وأكثر طعامه ما يشتري من أولاد الكوشة وقال لي : « ليس لي عادة في غداء أو عشاء وإنما اذا احتجت أكلت من غير توقيت . » وكان هو القارئ في مجلس شيخنا الفقيه العالم الصالح المفتي بفاس أبي محمد عبد الله الونغيلى الضريير من تلامذة أبي الربيع اللجائي الذي قرأ على القرافي . وقد انفرد الونغيلى بفهم كتاب ابن الحاجب في الفروع والأصول وعليه ختمت الأصلين بفاس بمدرسة الوادي نفع الله به . وكان الرجراجي أيضا يحضر معنا مجلس شيخنا الفقيه الحافظ الصالح المفتي الحاج أبي العباس أحمد بن القباب في الحديث والفقه وأصول الدين . و كانت وفاة هذين الشيخين ، رحمهما الله ونفع بهما ، عام تسعة وسبعين وسبعمائة . وسرق لي يوما قدماي (١) في صلاة العصر في المسجد الذي يقع فيه حضورنا عند ابن القباب . فسكت وانعقد المجلس وجلست وفي نفسي منه شيء ولم أعلم بذلك أحدا . فجاء الرجراجي على عادته للحضور وجلس بجنبي ساعة ثم خرج عنا خلاف عادته وجاء بقبقاب [قدمه محتفيا] (٢) وقال : « امش بهذا ، وطيب نفسك على من أخذ قدميك . » فقبلته وعجبت من ذلك ، نفع الله به . واذا عسر علي أمر دنيوي قصدته فيه و أقول : « أريد كذا وكذا . » فيسكت وتدمع عيناه ثم يقول لي : « نعم ان شاء الله . » فييسر الله عز وجل في ذلك . وما زلت أفعله معه . وقدم للخطابة بالجامع الأعظم من عدوة الأندلس بفاس . فخطب بها بعض

١ - في مخطوطتين : قدما ؛ في غيرهما باستثناء ك : قدمي ؛

في ك : قبقاب . ولا شك ان القدم ، القبقاب .

٢ - ك : سقط ما بين منعقفين .

جمعة من غير أن يغير ثوبه ثم فر من ذلك . وهو لا يرد زيارة السلطان له ويجلس معه ويحضره على الخير و على رعي من يستند الى الله تعالى وان كان كاذبا . ويمثل السلطان ما يأمره به من أفعال البر . وسعى في هذا الزمان في تغيير المنكر بنفسه وأقام الحد على من يرى أنه لا يحسن عليه بذلك وظهر في ذلك ظهورا تاما (١) ويسر الله له في هذه المطالب وأعانه العامة والخاصة بحيث لو قال : « هذا اقتلوه ! » لقتل قبل تمام الكلام . وتفقد أمر القضاة وأصحاب الأحباس و غير على من لم يصلح وصارت الخاصة والعامة تحت طاعته لا بالتزام أمر ولا مخافة شر و انما خاف الله تعالى فخاف منه كل شيء . وما زال يتفقدني بالسؤال ويبعث لي بالدعاء والسلام ، أبقى الله بركته وضاعف في أهل الدين حرمة بمنه وكرمه .

ورأيت منهم بفاس الخطيب الشهير الصالح الكبير أبا عبد الله محمد بن عباد الرندي و كان والده من الخطباء الفصحاء النجباء . ولأبي عبد الله هذا عقل وسكون وزهد بالصلاح مقرون وكان يحضر معنا مجلس شيخنا الفقيه أبي عمران موسى العبدوسي ، رحمه الله . وهو من كبار أصحاب ابن عاشر ، رحمه الله ، ومن خيار تلامذته وله كلام عجيب في التصوف وصنف فيه ما هو الآن يقرأ على الناس مع كتب التذكير وله في ذلك قلم انفراد به وسلم له فيه بسببه . ومن تصانيفه العجيبة شرح كتاب الحكم لابن عطاء الله في سفر رأيته وعلى ظهر نسخة منه مكتوب :

لَا يَبْلُغُ الْمَرْءُ فِي أَوْطَانِهِ شَرَفًا

حَتَّى يَكِيلَ نُرَابَ الْأَرْضِ بِالْقَدَمِ (٢)

١- را ، ف : ق ... في تغيير المنكر بنفسه وظهر نفعا من التهم

وأقام الحد على [...] ويسر الله ...

٢- من البسيط .

ومن كلامه فيه : « الاستئناس بالناس من علامة الافلاس ، و فتح باب الأنس بالله تعالى الاستيحاش من الناس . » ومن كلامه فيه : « من لازم الكون وبقي معه و قصر همته عليه ولم تفتح له طريق العيون الملكوتية ولا خلع بسره الى فضاء مشاهدة الوحدانية فهو محبوس بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته . » الى غير ذلك من كلامه . وهو لا يرد زيارة السلطان له ويحضر السماع ليلة المولد عنده . و ما رأيت قط في غير مجلس جالساً مع أحد . وانما حظ من يراه الوقوف معه خاصة . و كنت اذا طلبته بالدعاء احمر وجهه واستحيا كثيراً ثم يدعو لي و أكثر تمتعه من الدنيا بالطيب والبخور الكثير . ويتولى أمر خدمته بنفسه . ولم يتزوج ولم يملك أمة . ولباسه في داره مرقعة . فاذا خرج سترها بشوب أخضر أو أبيض . وله تلامذة كلهم مباركون . وبلغني عن بعضهم أنه تصدق حين تاب على يده بعشرة آلاف دينار ذهباً . وهو الآن امام جامع القرويين بفاس وخطيبه . وأكثر قراءته في صلاة الجمعة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) . » وأكثر خطبته وعظ ومثله من يعظ الناس لأنه اتعظ في نفسه . وقد أوحى الله الى عيسى ، عليه السلام : « يا عيسى ، عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستح مني . » ذكره الغزالي . وعهدي به أنه على صفة البدلاء الصادقين ، أكثر الله مثله في الاسلام بجاء النبي عليه السلام .

ورأيت منهم بفاس المرأة الصالحة مؤمنة التلمسانية . وتبركت بها وما زالت على ما تقرر عندي ، تخصني بالدعاء في ظهر الغيب . وكان قاضي الجماعة بفاس أبو عبد الله المقرئ ، رحمه الله ، يزورها ويسعى في قضاء حوائجها . وكانت على زهد وتقشف وعبادة وورع . وكان قوتها في العام من غزل يديها من نصف وسق شرعي من الزرع وهو ثمنه ونصف بالكيل الجديد ببلدنا . لا تقبل من أحد شيئاً . و ما زالت تقيم بدارنا

١ - سورة النصر .

أياما متوالية ، لا تأكل شيئا . وكانت تقيم عندنا الشهر ونحوه على يسير من قوتها و ما أكلت طعاما لنا قط . وهذه عاداتها مع غيرها . وكان الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن عبد الوهاب المعلم لكتاب الله تعالى هو الذي يكتب لها لوحها و يبادر به . وكانت تنقطع عن مخالطة الناس في رجب وشعبان ورمضان ولا تساكن أحدا ولا يراها في زمن انقطاعها أحد من الناس ولا تكلمه . واذا احتاجت الى شيء كالزيت تضع البطة عند الباب والدرهم بازائها فيبادر اليها به . وكذلك غيره . وقصدها في بعض أشهر انقطاعها ، فوقفت الي و كلمتني ومنعتني من الدخول وقالت لي : « لولا مكانتك عندي يا أحمد ما كلمتك و ما فعلته مع غيرك . » وأراد سيد الشرفاء و جليس الأمراء الفقيه العالم العلم الصدر الشيخ الشهير أبو القاسم الشريف التلمساني زيارتها فأبت وقالت : « يعظم علي أن يقصدني شريف . » وأيضا « هو ممن يوالي أهل الدنيا . » وسألها مرة عما تكلف به . فقالت : « حسكة أدخل بها أسناني . » فانصرفت ووجدت في ظريقي حملا من الحسك بازاء كوشة . ففرحت بتيسيره وأخذت منه نحو الثلاث ورجعت اليها فقالت لي : « من أين هذا ؟ » فأعلمتها فقالت لي : « و هلا استأذنت صاحبها ؟ ردها اليه ! » فرجعت الى صاحب الحسك وطلبتة في أن يسمح . فسمح وقال لي « لاحظ لهذا (١) . » فرجعت اليها وأعلمتها فقالت لي : « ما كان فيه هذا لا حاجة لي به ، سر في حفظ الله تعالى . » فانصرفت وعلمت أن قصدها أن تطلعني على آداب دقيقة و تنبهي على ما أنتفع به . ورفعت اليها مرة كعيكات ورغبتها في القبول فقبلت ذلك مني فكنت بعد ذلك اذا زرتها تقدم لي كعكا ولا أدري من أين هو . فقدمت لي يوما واحدة من الكعك وتبسمت وقالت لي : « هذا آخر كعيكاتك ولا أكلت الا متاعك . » وكأنها تحذرني من مثل ذلك ، نفعنا الله بها . و رأيتها مرة عليها جبة صوف وعلى رأسها طرف من تليس

١ - ك : الأمر سهل .

معقود تحت ذقنها و شيب رأسها ظاهر على جبهتها و لوحها فيه من سورة البقرة بيدها . قالت لي : « كيف يكون حالي يا ولدي بين يدي ربي ! » وأخذت في البكاء . كانت تقول : « أريد أن أموت بعباد تلمسان . » وتكرر ذلك . فلما قربت منيتها يسر الله لها في السفر الى تلمسان . فسافرت وتوفيت بها بعد وصولها اليها بأيام ، رحمها الله ونفع بها .

ورأيت منهم شيئا صالحا من المصامدة لا يألف الى انسان ولا الى مكان وما رأيت أنور من أطراف بدنه لكثرة الوضوء وعليه مرقعة وبيده ركوة . جلست معه وسألته مختبرا عن مسألة في الوضوء . فقال : « تختبرني . » فاستغفرت الله تعالى واعتذرت له حتى طابت نفسه . وتمتعت به يوما في منزل من منازل البادية وجلست معه بعد صلاة المغرب ذلك اليوم خارج مسجد المنزل و معنا امام المسجد وبعض أهل الدار . فقال لهم : « كيف أنتم ؟ » قالوا له : « بخير اذا أمطرنا الله تعالى . » وكان ذلك في ابريل . فقال : « اللهم أمطرهم الليلة الليلة الليلة . » ولم تكن علامة البتة و افترق الناس . فلما كان ، والله لا اله الا هو ، آخر الليل أنزل الله المطر الكثير . فخرجت بعد الصبح متعجبا وسألته امام المسجد عنه فقال لي : « طلبته انا قبلك فلم أجده ، نفع الله به . »

ورأيت منهم شيئا خارج مدينة سلا في مسجد منقطع بموضع يقال له العلاني لا أذكر الآن اسمه ويغلب على ظني أنه من بلاد حاحة وكنت أسمع عنه أنه يتحدث بما يتحدث من أحوال الدنيا . والسبب في لقائه أنني قدمت على مدينة سلا في هذا اليوم و لي معرفة بواليتها . فقلت لمن معي : « ان أردتم الاتساع فنزولنا بدار الوالي أولى بنا . لكنه يعسر علي أن أقصده . » وتداولنا في هذا ثم رأينا فرسانا أقبلت متوجهة الى طريقنا . فلما وصلوا الينا و اذا به من تكلمنا عليه . فسلم علينا وشكرت

الله تعالى فقال لي « خرجت برسم اصراف كتاب (١) الى السلطان . فان شئت أن تصحبني حتى أفرغ من هذا الكتاب . » فرجعت معه فقال : « انزل أنت في ذلك المسجد . » فوجدت هذا الشيخ وهو يقيس الظل لوقت الصلاة . فسلمت عليه وسألته عن الوقت فقال لي : « هذا وقت الصلاة . » فصلى بي الظهر . فلما فرغ من صلاته سألته عن اسمه ومن أين هو فأعلمني فوجدته الرجل الذي كنت أسمع عنه . فسررت بذلك وجددت السلام عليه وتمتعت بالحديث معه و بالتبرك منه الى أذان العصر . وكان مما قال لي : « خرجت من سلا فارا من صاحبها لأنه طلب لقائي فامتنعت من ذلك . » فقام وأذن العصر ودخل صاحب سلا ومن معه برسم الصلاة . فصليت بالجميع لأن هذا المبارك طلبني ذلك وصلى الوالي بجنبه وانفصل الناس بعد الصلاة وجلست معه ساعة وليس عنده [...] (٢) وآنية الموضوع . وسألته عما يتحدث و عرضت له أن غرضي في سماع شيء من هذا . فسمعت منه أمورا مستقبلة وقعت كلها وقلت : « بفضلك ، بأي الوجوه تطلع على مثل هذا ؟ » فتبسّم وقال لي : « يا أخي من أصحابنا من يراه مكتوبا في الهواء . » [...] (٣) بلقائه . وسرنا الى البلد . فبعد مسافة وقع مني حديث في بعض ما سمعت منه مع والي سلا . فقال لي : « من أين لك هذا ؟ » فقلت له : « من فلان . » فقال لي : « وأين رأيتة ؟ » فقلت له : « هو الذي صلى العصر بجنبك [...] (٤) فتأسف وقال : « حجبني الله عنه ؛ كل ما ذكر لك فانه يقع لأنه من المشهورين نفع الله به . »

ورأيت بمدينة سلا شابا في مسجد منقطع ، عليه مرقعة ، وهو مستقبل الى القبلة لا يكلم أحدا ولا يحول وجهه عن القبلة و لا أدري من

١ - ك : أريد ان أصرف كتابي هذا الى السلطان .

٢ - بياض في كل المخطوطات .

٣ - بياض في كل المخطوطات .

٤ - بياض في ك .

أين عيشه ولا أرى وقتا يريد الوضوء . وعجبت منه و لا وجدت كيف
أكلمه وهذه المدينة مقر الصالحين .

ورأيت منهم فيها عددا كثيرا منهم الخطيب الصالح الولي الشهير
المعلم لكتاب الله تعالى أبو الحسن علي بن أيوب . لجأ اليه ، وأنا عنده ،
رجل يشكو بوجع في بطنه يصيح منه . فمسح بيده المباركة عليه وحرك
شفتيه فذهب ألمه بقدرة الله تعالى وبركته .

ورأيت بها الشيخ الصالح عبد العزيز الصنهاجي . قصد زيارته
السلطان عبد العزيز المريني وكاشفه بأشياء تعجب منه بسببها . وكان
لا يرده في حاجة و لذلك عظم التوسل به اليه .

ورأيت بها الشيخ القصار (١) ، نفع الله به ، وهو معدود في
الأولياء .

ورأيت فيها ولي الله تعالى الفقيه ابن مصباح آكراس . وكان من
أقران ابن عاشر . و له عبادة و ورع . وهو ابن خالة أبي الربيع
سليمان الذي قدمت ذكره . ومعنى آكراس أن والده مصباح يقال انه كان
يحفظ كراسا في اليوم فلقب به . وكان من كبار الفقهاء بالمغرب واشتغل
والده هذا بالعبادة بعد العلم ، نفع الله به .

ورأيت الحاج عبد الغني ، نفع الله به . وله زاوية بمقربة من الجامع
الأعظم يأوي اليها الأخيار المنقطعون للعبادة . وهو واقف في خدمتهم ،
نفع الله به و بهم . دخلت زاويته وأنزلني في بيت كتبه وناولني مفتاح
خزانته . فتمتعت بدعائه ولقائه . وقصده مرة وزير المغرب عمر بن عبد
الله بن علي البياني في حاجة . فأبى أن يقضيها . وسمع من الوزير
ما يكره بسببها . فخرج عنه وهو يقول : « اللهم أرحنا منه . » و كرر
ذلك وسمع دعاؤه فقتل الوزير بعد أيام . و تعجب الناس من ذلك .

وخرجت الى ساحل البحر فوجدت على البحر أخيارا ، قوتهم

١ - را : القسار ؛ ف ، ق : النسار .

من صيد الحوت . و على الجملة فهذه المدينة أولى بالمريسة بالمغرب من غيرها
عمرها الله بالخير والبركة .

ورأيت منهم رجلا مجهولا ببلد صفرو من حوز مدينة فاس . وسبب
رؤيته أنني دخلت جامع هذا البلد ، على عادتي ، في البحث على الفضلاء
وذلك في غير وقت الصلاة . فلم أجد فيه أحدا . ففتحت باب بيت صغير
في قبلته ودخلت البه فوجدت فيه رجلا نحيف البدن جدا ، فسلمت عليه ،
فرد علي السلام . فسألته عن الحال فلم يجبني ، فكررت عليه من
أين ورد فسكت عني . فجلست أنظر اليه ساعة و أدركتني منه عبرة .
ثم طلبته في الدعاء ولم أسمع منه و لا أدري هل دعا لي في نفسه أم لا .
فخرجت وفي نفسي شيء . و اذا بجماعة من الفقهاء الواردين . فسألوني
من أين . فأخبرتهم وأعلمتهم بالرجل . فقال أحدهم : « هذا مبارك
ارجع معنا بفضلك اليه . فدخلنا على الرجل فما سمعوا منه الا رد السلام
فبكي أحدهم بين يديه ، فنظر اليه وسكت . فجلسنا ساعة كل واحد
منا يذكر الله تعالى ثم خرجنا فقلت : « ولعل أن نعطي له ما يستعين
به . » فوافقوني على ذلك وأخرجنا دراهم كثيرة ورجعت أنا بها وأعلمته
بذلك . فلم يكلمني . فوضعتها بجانبه وسلمت عليه وانصرفت وسافرت
عن البلد المذكور . فلما قضينا سفرنا و رجعنا على طريقنا الى صفرو
سألت عنه شيخ البلد فقال لي : « غاب عنا وما علمنا أمر ذلك الرجل
ولا سمعنا له كلاما قط الا رد السلام . و اذا قرب له الطعام تارة يأكل
منه اليسير وتارة يرده . وهو لا يعرفه كل الناس . » ثم قال لنا : « وهل
رأيتموه ؟ » قلنا له . « نعم . » قال لنا « أنتم الذين أعطيتموه الدراهم ؟ »
قلنا : « نعم » قال : « وجدنا دراهمكم بعد سفره مطروحة هنالك وتراها
وقفناها عند امام الجامع حتى يرى ما يتصرف فيه . فعلمنا حينئذ
ولايته ، نفع الله به .

ورأيت منهم بصنهاجة آزموور من بني تامدد (١) الشيخ الصالح
أبا محمد عبد الواحد الصنهاجي ، و زوجته الحرة الصالحة فاطمة .
وتبركت بها وحصلت لي الغنيمة التامة بدعائها (٢) . أخبرني بعض صدور
هذا الكتاب قال لي : « خطرت على صنهاجة في فصل العنب وأنا أسير
بين كرمها وهم يجنون عنبها فقلت في نفسي : ما أبخلهم ! هلا
عرض علي أحد منهم ! وسرت واذا بشيخ ينادي : قف ! [فوقفت] (٣)
فناولني عنقودا عظيما فيه حب يقرب من الليم . فقال لي : « خذ هذا
و لاتنسب صنهاجة اني البخل . » فعجبت من ذلك وسألت عن الرجل
ف قيل لي : « هذا الشيخ عبد الواحد . » وقال لي بعض الفقهاء : « ما هو
الا في بركة زوجته . » ولما أردت لقاءها استأذنته . فبعث معي من
كلمها لي فوقفت وأسدلت عليها كساء ورحبت بي وأخذت في أدعية عظيمة
يقصر عنها من يسردها من كتاب . وتكاثرت الناس علينا عند سماعهم
بخروجها الي ، كلهم يسمعون دعاءها . وخطرت على بئر في وسط الطريق
بمقربة من دارهم فقيل لي : « هذا البئر من حفر الشيخ عبد الواحد
وزوجته وتسويتها ولا ثالث معهما وخرجا عنه للمسلمين نفع الله
بهما بمنه . »

ورأيت منهم بالمغرب الأقصى في طرف سكسوية من جبال درن بموضع
يقال له القاهرة [الحرة] (٤) الصالحة عزيزة السكسوية وتبركت بها
وجلست معها وهي متوجهة في صلح بين فئتين عظيمتين . و لها أتباع
من الرجال وأتباع من النساء . و كل طائفة اشتغلت بالمجاهدة والعبادة
في جهة ما يخصصها ويضرب لها قيطون بالوسط بمقربة من طائفة النساء

١ - ك : تامرد .

٢ - وفي را وك : العناية الصالحة بسبب دعائها .

٣ - زيد ما بين منعقفين عن ف و ق .

٤ - ك : سقط ما بين منعقفين .

ولا يتحرك أحد الا عن أمرها و اذا جلست للناس تلقى عليها كساء لا تترك فيها من أين تنظر الى أحد (١) وهي فصيحة جدا في أجوبتها و أوامرها و وعظها . ورأيت الناس يتزاحمون عليها . وما رأيت ألين من كلامها في السؤال عن الحال . و لها كرامات مشهورة . ركب اليها الرئيس الشهير صاحب مراكش عامر (٢) بن محمد الهنتاتي ، و جلس معها كثيرا وقال لي ، بعد أن انفصل عنها : « يا فقيه هذا هو العجب ، تبادرني بالجواب عما يخطر في نفسي وما قدرت أن أراجعها في كل ما طلبت مني . و ما رأيت أنفذ من حجتها فيما تحتج علي به في الذي يتوقف فيه . » وكان عامر بن محمد من الأذكياء الفصحاء الذين لا يقهرون بحجة . و هو من العظماء و رؤساء الدنيا كلامهم في ذلك حجة . و كان في جيش صحيح يزيد على ستة آلاف . و أقام حركة بمال جزيل (٣) . و كان قاصدا لحصار السكسوي [في جبله ليدخل تحت طاعته فأمرته بالرجوع وألزمت له طاعة السكسوي] (٤) . فرجع وجاءه كتابه بخدمته وطاعته . و أخبرني بعض الفضلاء أن لها في مقامات الصالحين حالا عظيما نفع الله بها .

ورأيت منهم الشيخ الصالح المبارك أبا محمد عبد الله الصنهاجي . له مقام في الصالحين اكتسبه بخدمتهم وركونه اليهم وقيامه بحقهم . سمعت من جملة الفضلاء حكاية سجنه الشهيرة . فلما قدمت عليه و قدم الي الطعام حبست عن الأكل وقلت له : « يا سيدي تشوقني نفسي الي سماع سجن ابن بطان لك . » فقال : « حدث بيني وبين ابن بطان والي صنهاجة أمر فثقفني عليه أحد عشر يوما وأطلقني . فخرجت الي زيارة

١ - ك : لا تترك فيها ما ينظر منه اليها .

٢ - ك : عمر .

٣ - ك : لها بال .

٤ - ك : سقط ما بين منعقفين .

الصالحين . فأول من رأيت منهم رجل منقطع قال لي عند اقبالي عليه : « كم سجنك ابن بطان ؟ » فقلت له : « أحد عشر يوما . » قال : « أنا أسجنه احدي عشرة سنة ! » فقال لي : « والله ما مرت أيام بسيرة حتى وصل كتاب السلطان أبي الحسن المريني بسجن ابن بطان . فسجن وما ترك حمية و لا رشوة الا أخذ فيها ليخرج من سجنه . وكنت أقول لهم : حتى تكمل المدة التي عينت لي . » قال : « فما خرج من السجن الا بعد احدي عشرة سنة وكانت هذه النكبة سبب حرمتي عند العمال . » ورأيت أنا ابن بطان هذا وهو في غاية التعظيم له والخوف منه .

وذكر لي أيضا هذا المبارك أنه أخذ في حركته الى الحجاز قال لي : « وكان في زاويتي فقير حقير تعرض الي يوما وقال لي : لا تتعب نفسك في الحركة و انما تحرك في العام الثاني وفيه يولد لك ولد اسمه شعيب . » قال : « فلم أقبل ذلك منه وتحركت فعاقني أمر ورجعت بسببه وشرقت في العام الثاني وتركت الزوجة حاملا . فلما رجعت وجدت في الدار ولدا تزايد بعدي . فقلت لهم : ما اسمه ؟ فقالوا لي : شعيب . و دعاه حينئذ وقال لي : هذا هو . » و أخبرني هذا الشيخ المبارك بكثير مما شاهده من ذلك نفع الله به وبأمثاله . و أخبرني بعض أصحابنا الفقهاء أنه كان عنده ولد مريض بالاسهال أعياي الأطباء أمره . قال : « فدخلت الى الدار فوجدت أمه متحسرة عليه وأمره في زيادة . فتغيرت نفسي وقلت : ما لي الا الغيبة . و رفعت درهما في فمي فلقيني رجل في زحام السوق فحبسني بيده وقال لي : أعطني ذلك الدرهم نشتر به النبق . فدفعته له ودهشت من مكاشفته حتى غاب عني . ثم قلت في نفسي : النبق والله طيب لصاحب هذه الشكاية . وكان ولدي لا يذوق شيئا بوجه الا الماء خاصة . فاشتريت النبق وأطعمته له فقبله وأكله وكان سبب برئه . »

و لو استقصيت لك ما اطلعت عليه في هذه الجزئيات لطال الكتاب لذلك ولنقتصر على ما ذكرته ونختمه بالتنبيه على الأصل في

تأليف الفقراء وهو الاخاء في الله تعالى . و لولا هذا القصد لكان كل انسان منهم لنفسه . لكن لما كانت الأخوة درجة عالية ومقاما شريفا و بها يظهر قوي الايمان في التخلق والصبر واحتمال الأذى و صفاء المعاملة وقبول العذر والتماسه والصفح والاحسان الى غير ذلك من السير الحسان (١) حرص الفقهاء عليها . وعلامة حصولها : نفي التمييز في المال وجميع الأحوال ونفي الافتقار الى الاستيذان وشأن الأخوين أن يحزن كل منهما بحزن أخيه ويفرح بفرح أخيه وكل ذلك في طاعة الله سبحانه الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في الجنة عمود من ياقوتة خضراء عليها غرف مبنية ، لها أبواب مفتحة تضيء كما يضيء الكوكب الدرّي . » فقال أبو هريرة : « ومن يسكنها يا رسول الله ؟ » قال : « المتحابون في الله المتلاقون في الله . » (٢) وقال رسول الله صلى الله عليه : « اكثروا من صحبة الصالحين فان فيهم الشفعاء . » فهذا هو الأصل في تأليف الفقراء . وياك أن تدم من ترى منهم فان ذلك سبب لحرمانك . تدم هذا وتدم هذا فيخفى عليك الأفضل فاذا أحسنت ظنك بهذا وقرت واعتقدت هذا وقع بيدك الأكمل . والدين النصيحة والمؤمن من للمؤمن كالبنيان المرصوص و سلامة الصدور رأس العبادة وأساسها والتخلق بالأخلاق الجميلة نجاحها والتواضع عزها وجمالها ؛ والتنافس في الظهور خللها وفسادها ؛ والمبتدع ضال والتفرغ لغير الله ضلال . وقد ورد علي سؤال من جهة بعض الطلبة مقتضاه أن يسأل عن شهادة طائفة من الفقراء عينها بانتسابها الى رجل . فأجبت بعد الحمد لله « من استقام بطريقة وثبتت عدالته جازت شهادته من أي طائفة كان من الفقراء والله أعلم . ولا يظن ظان أنني طولت هنا حتى خرجت عن الغرض

١ - الأخلاق الحسان .

٢ - راجع التشوف ص ٢٢ .

الذي كنت قصده أولاً . فقد احتوى هذا المحل على أشياء شأنها أن تميل النفس الى السؤال عنها مع الإشارة الى آداب حسنة وسير قوم مستحسنة . ولنرجع الى ما كان قد جرى القلم عنه (١) والاعانة بالله تعالى ولله در القائل :

فِيَا لَيْتَ شِعْرِي أَيَّنَ أَوْ كَيْفَ أَوْ مَتَى

يُقَدِّدُ مَا لَا بُدَّ أَنْ سَيَكُونُ (٢)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله بن ماكسن (٣) الصنهاجي وهو الذي حدث عنه الحكاية الغريبة قال : « كان الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه ، في مجلس اقراءه . فجاء رجل ليعترض عليه . فأراد القارئ أن يقرأ فمنعه الشيخ أبو مدين من القراءة وقال له : اسكت ! ثم التفت الى الرجل وقال له : لم أتيت ؟ قال : أتيت لأقتبس من أنوارك . فقال له الشيخ : ما في كمك ؟ فقال له الرجل : مصحفا . فقال له أبو مدين : أخرجه وافتحه وقرأ أول سطر منه فاذا فيه : « الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ . » (٤) فقال له أبو مدين : أما يكفيك هذا ؟ »

يَا مَنْ تَوَقَّفَ جَهْلًا فِي كَرَامَتِهِمْ

حَقِّقْ وَ صَدِّقْ فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ صَدَقُوا

لَا يَسْتَوِي مُتَّانٍ فِي بَطَالَتِهِ

وَ حَازِمٌ نَحْوَ بَابِ الْقُرْبِ مُنْطَلِقُ (٥)

١ - ك : الى ما نحن بصدده .

٢ - من انطويل .

٣ - ف ، ق : ماكس ، وفي را و ك : ماكسن . راجع التشوف ، ص ٣٢٣ .

٤ - سورة الأعراف : ٩٢ .

٥ - من البسيط . راجع التشوف ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

و من أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الحرة الصالحة فاطمة الأندلسية (١) . قال أبو عبد الله محمد بن أحمد الزناتي : « بت عند أبي عبد الله ابن جميل القصري المعلم وبات معنا الشيخ الصالح أبو عبد الله التاودي و أبو زكرياء السائح . فذكرنا بعد صلاتنا في الليل طيب حوت القصر . فغاب عنا أبو عبد الله المعلم ساعة ثم قدم علينا و معه حوت . وكان بيننا وبين البركة ثمانية عشر ميلا . فتعجبنا من ذلك . فلما صلينا الصبح ذهبنا الى زيارة فاطمة الأندلسية فوجدناها في صلاة الضحى . فلما سلمت من الصلاة قالت : « لاتنكروا براهين الصالحين فانها حق وسأحدثكم بما رأيتم . ذهبت أنا والفقير ابن صالح من القصر الى مدينة فاس برسم زيارة الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، فبتنا معه في سماع كان عنده . فلما طلع الفجر دخل علينا رجل عليه عباءة ففرح به الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه وقال للحاضرين : هذا أخ من اخواني في الله تعالى صلى البارحة العشاء بمكة وسرى ليلته فطلع عليه الفجر عندنا بمدينة فاس . » قالت : « فصلى معنا الصبح وذبح له الشيخ أبو مدين كبشا لضيافة . »

يَبُوحُ بِسِرِّ التَّحْقِي صَائِبُ مَنطِقِي
وَكُلُّ إِنَاءٍ بِأَلَّذِي فِيهِ يَرشَحُ
وَ لَيْسَ جَنَابُ الْقُدْسِ إِلَّا لِأَهْلِهِ
وَ مَا كُلُّ إِنْسَانٍ بِوَادِيهِ يَسْرَحُ (٢)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله الصنهاجي عرف بالزرهوني (٣) . كان من أهل الفضل والعلم

١- راجع التشوف ، ص ٣٣١ .

٢- من الطويل ، راجع التشوف ، ص ٣٣٧ .

٣- راجع التشوف ، ص ٤٤٢ .

والصلاح وشكوا اليه بعض أصحابنا أنه اشغله ذكر الموت عند ارادة النوم عن الراحة التي يستعين بها على العبادة فقال له : « يكفي الانسان ذكر الموت عند النوم . »

تَنَامُ وَلَمْ تَنَمْ عَنْكَ الْمَنَايَا
تَنَبَّهْ لِلْمَنِيَّةِ يَا نَوْمُ
سَلِ الْأَيَّامَ عَنْ أُمَّمٍ تَقَضَّتْ
سَتُخْبِرُكَ الْمَعَالِمُ وَالرُّسُومُ
تَرُومُ التُّخُلْدَ فِي دَارِ الرَّزَايَا
وَكَمْ قَدْ رَامَ غَيْرُكَ مَا تَرُومُ
لِأَمْرِ مَا تَصَرَّمَتِ اللَّيَالِي
لِأَمْرِ مَا تَقَلَّبَتِ النَّجُومُ (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الفقيه العالم الصالح أبو عبد الله محمد بن حمادو الصنهاجي من قلعة بني حماد . ذكر في فهرسته أنه لقي الشيخ أبا مدين ، رضي الله عنه ، وقرأ عليه كتاب المقصد الأسنى في شرح اسماء الله الحسنى من فاتحته الى خاتمته تفقه بداره ببجاية سنة احدى وثمانين وخمسمائة قال : « وقيدت كلامه عليه أول يوم من غير أن أعلم أحدا . فلما كان في اليوم الثاني قال لنا الشيخ : لا أريد أن تقيد عني شيئا مما أقوله في هذا الكتاب . » وكاشفنا بذلك .

وابن حمادو هذا يتصل بسندي لكلام الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه، وروايتي له . فاني رويتة عن شيخنا الفقيه الخطيب القاضي العدل الحاج المرحوم أبي علي حسين بن خلف الله بن باديس من بيتات بلدنا وممن روينا عنه الحديث وغيره . وكانت وفاته ، رحمه الله ، وهو قائم على خطة القضاء

١ - من الوافر .

بقسنطينة ، عام أربعة وثمانين و سبعمائة . و ولد في غالب ظني عام سبعة وسبعمائة ؛ عن الشيخ الفقيه الخطيب أبي محمد عبد الله ابن برطله . ولقي ابن عات (١) وأبا موسى الجزولي النحوي وغيرهما وله سلف في العلم . وكانت وفاته بتونس سنة احدى وستين وستمائة . ولقيه القاضي أبو اسحاق بن عبد الرفيح وأخذ عنه بعد وروده من الحج سنة ثمان وعشرين وستمائة ؛ عن ابي مدين رضي الله عنه .

وَ لِي مَذْهَبٌ فِي لَفْظِهِ وَ طَرِيقَتُهُ

مَسَائِلُهَا فِي التَّحْبِ لَا نُشْبِهُ الطَّرْقًا (٢)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح بلال وكان مختصا بخدمته سالكا على طريقته . وسكن بعده عباد تلمسان . وبه يتصل سندي في لبس الخرقة فاني رويتها حين ألبسها ألبسني اياها بيده المباركة الشيخ الصالح أبو موسى القروي : ألبسني بيده الخطيب المحدث أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح المرحوم أبي العباس أحمد بن مرزوق التلمساني ، وقد أدركته وسمعت عليه بعض البخاري الا أنني لم آخذ عليه لبس الخرقة . قال : ألبسني والسدي بمكة . قال . ألبسني بلال خديم الشيخ أبي مدين . قال : ألبسني أبو مدين . قال : ألبسني أبو الحسن بن حرزهم . قال : ألبسني القاضي أبو بكر بن العربي . قال : ألبسني أبو حامد الغزالي . قال : ألبسني امام الحرمين أبو المعالي . قال : ألبسني أبو طالب المكي . قال : ألبسني الجنيد . قال : ألبسني سري السقطي . قال : ألبسني معروف الكرخي . قال : ألبسني داود الطائي . قال ألبسني حبيب العجمي . قال : ألبسني الحسن البصري . قال : ألبسني علي بن أبي طالب . قال : ألبسني رسول الله ،

١ - ق : ابن عتاب .

٢ - من الطويل .

صلى الله عليه وسلم . وهكذا حضرت لجدي للأم يوسف بن يعقوب يذكر هذا السند حين يكسي الخرقة لمن يرغب ذلك منه الا أن بينه وبين أبي مدين رجلين والده وابن عوف كما ذكرناه قبل هذا .

ولقي جدي هذا أبا العباس بن مرزوق تلميذ بلال وعاشره في داره بتلمسان مدة وكان عند أبي العباس بن مرزوق عكاز الشيخ أبي مدين واتحف جدي منه بجزء ؛ و رأى له بركة عظيمة . ويغلب على ظني أنه كانت عند أبي العباس بن مرزوق المرقعة التي نزعتم عن الشيخ بعد وفاته والله أعلم .

لِلصَّالِحِينَ مَنَاقِبٌ مَّا تُورَثُ

يَهْتَجُّو مَآثِرَهَا الطَّرِيقُ الْأَوْفَقُ

شَاعَتْ بِالسِّنَةِ الثَّقَاتِ وَ كُتُبِهِمْ

مُتَحَقِّقٌ فِيْمَا رَوَاهُ مُتَحَقِّقٌ (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو عبد الله البوني (٢) . وكان من الأخيار . خرج مرة من بلد العناب الى زيارة الشيخ أبي مدين ببجاية . فقال له الشيخ الصالح الولي الشهر المنقطع الى الله تعالى سيد أهل عصره وقادة أهل مصره امام الزاهدين و قدوة المريدين وحامل لواء العارفين أبو مروان الفحصبلي (٣) ، رضي الله عنه ونفع به . « سلم على أبي مدين ، وقل له : ادع لي . » فقال : « فلما وصلت اليه وجدته بثياب حسنة رفيعة برائحة المسك والطيب وهو على حالة تشبه حالة الملوك . فسلمت عليه وجلست بين يديه ثم قلت له : ياسيدي يسلم عليك سيدي أبو مروان الفحصبلي وقال لك : ادع لي . فقال : نزع الله من

١ - من الكامل .

٢ - ف ، ق : عبد الله البوني .

٣ - ك : اليحصبي ؛ را : الفحصبلي (بضم الصاد والباء) ؛ ق : الفحصبلي (بضم الباء) .

قنیه حب الدنيا . » قال : « فتعجبت من هذه الدعوة وقلت : سبحان الله تركت الشيخ أبا مروان في غاية من الزهد والتقشف والاقبال ونبذ الدنيا جملة وهذا الشيخ فيما رأيت من التمتع ويدعو له بهذه الدعوة فلما قضيت زيارتي ودعته ورجعت الى بونة . فقصدت الشيخ . فوجدته بمرقعة وبیده قصبه صيد الحوت . فسلمت عليه فقال لي : رأيت الشيخ أبا مدين ؟ فقلت له : نعم . وأخبرته بما وقع . فأخذ القصبه وكسرها ورمى بالسنارة وقال : قال الشيخ الحق . قلت : ولا يعرف الفضل لأهل الفضل الا أهل الفضل نفعنا الله بهم وأعاد علينا بركاتهم . »

يَا شَيْخُ هَلْ لَكَ مِنْ مَهْلٍ عَلَى رَجُلٍ
حَمَلْتَهُ مِنْكَ مَا يُوهِي قُوى الْجَبَلِ
نَفْسٍ فَإِنَّكَ قَدْ أَوْشَكَتَ نَفْتُلَهُ
وَ أَبْتَقِ فِي الْعُودِ مَا فِيهِ مِنَ الْبَلَلِ (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم (٢) وهو الذي حدث عنه قال : « سمعت الشيخ أبا مدين يقول : جاءني رجل من الصالحين فقال : رأيت البارحة في النوم جماعة منهم أبو زيد البسطامي - قلت : واسم أبي يزيد طيفور - مع غيره من المشايخ وهم على منابر من نور وأبو طالب المكي على منبر عال وأبو حامد يقابله على منبر و أبو طالب يسأل أولئك المتصوفة فيجيبه كل واحد منهم على مبلغ علمه . فقال أبو طالب لأبي حامد : أين غابت هذه العلوم التي يصرها أبو مدين في دار الدنيا ؟ فقال له أبو حامد : هو ذلك عن يمينك فاسأله . فقال له أبو طالب : يا أبا مدين أخبرني عن سر حياتك . فقال : بسر حياته ظهرت حياتي ، وبنور صفاته استنارت

١ - من البسيط .

٢ - راجع التشوف ، ص ٣٢٣ .

صفاتي و بديومته دامت مملكتي وفي توحيد أفنيت همتي . فسر التوحيد في قوله : لا اله الا أنا . والوجود بأسره حرف جاء لمعنى . فبالعاني ظهرت الحروف و باتصافه اتصف كل موصوف وباسمه ائتلف كل مألوف ، مصنوعاته له محكمة ومخلوقاته له مسلمة ، لأنه خالقها ومظهرها ، ومنه مبدؤها واليه مرجعها . فهو لوجودك محرك وهو الناطق وهو الممسك . ان نظرت بالحقيقة تلاشت الخليقة فالوجود به قائم و أمره في مملكته دائم وحكمه في خلقه عام كحكم الأرواح في الأجسام (١) ؛ الحواس به بانت على اختلاف (٢) ؛ منه اللسان للبيان وهو مع ذلك لا يشغله شأن عن شأن . فقال له أبو طالب : من أين لك هذا العلم يا أبا مدين ؟ فقال : لما أمدني بسره غرف وادي من بحره فامتلاً وجودي نورا وأمدني (٣) غيبة وحضورا و سقاني شرابا طهورا و أذهب عني ضللا وزورا فغشيت أنواره أخلاقي فنظرت الباقي بالباقي . « قلت : اذا تأملت كلامه هذا مع كلامه في اليقظة وجدت النفس والمنبع (٤) واحدا لاشك في ذلك ، نفع الله به وأعاد علينا من بركاته بمنه وفضله .

وَقَدْ عَنكَ غِبْنَا ذَلِكَ الْعَامَ إِنَّا
 نَزَلْنَا عَلَى بَحْرٍ وَ سَائِلُهُ مَعْنَا
 وَ شَمْسٌ عَلَى الْمَعْنَى مَطَالِغُ أَفْقِهَا
 فَمَغْرِبُهَا فِينَا وَ مَشْرِقُهَا مِنَّا
 وَ مَسَّتْ يَدَانَا جَوْهَرًا مِنْهُ رُكِبَتْ
 نُفُوسٌ لَنَا [قِدْمًا] صَفَتْ فَتَجَّوَهَرْنَا

١ - وفي التشوف : وحكمه في خلقه عام كحكم الأرواح في الأجسام . في مخطوطات أنس الفقير فحكم عوض كحكم خطأ والتصويب عن التشوف .

٢ - وفي التشوف : على اختلاف أنواعها وهو الصواب .

٣ - في التشوف : و أثمر .

٤ - ف ، ق : المبلغ .

فَمَا السِّرُّ وَالْمَعْنَى وَ مَا الشَّمْسُ قُلْ لَنَا
 وَمَا جَوْهَرُ الْبَحْرِ الَّذِي عَنْهُ عَبَّرْنَا
 حَلَلْنَا وَجُودًا وَ أَسْمَهُ عِنْدَنَا الْقَضَا
 يَضِيْقُ بِنَا وَسَعًا وَنَحْنُ فَمَا ضَمْنَا
 تَرَكَنَا الْبِحَارَ الزَّاخِرَاتِ وَرَاءَنَا
 فَمِنْ أَيِّنَ يَدْرِي النَّاسُ أَيِّنَ تَوَجَّهْنَا (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الامام العارف
 بحر الأنوار معدن الأسرار أبو محمد عبد العزيز بن أبي بكر ، رضي الله
 عنه . دخل خلوته بقصر المنستير و واصل أربعين يوما . فقال امام جامع
 المهديّة : ان مات عبد العزيز فلا يصلى عليه لأنه قتل نفسه . « يعني
 بالجوع . فبلغ ذلك عبد العزيز فقال : « هو يموت وعبد العزيز يصلني
 عليه . » فكان كما قال . وسيق له بعد هذه المدة حسو فما استطاع
 أن يسيغه وقيل له : « كيف انت ؟ . » فقال : « حييت حياة لا أموت
 بعدها أبدا . » ارتحل الى بجاية برسّم لقاء الشيخ أبي مدين ، رضي
 الله عنه ، ليكمل تربيته في سنة من الأخيار و هم الشيخ أبو علي النفطي
 والدهماني و طاهر الحروغي (٢) وابن هُداس ومحموظ بن جعفر وسالم
 التباسي . فلما وصلوا جعلوا طاهرا الحروغي يحبس حميرهم وكان أصغرهم
 سنا . فقال أحدهم لخدام الشيخ أبي مدين : « أين الشيخ أبو مدين ؟ »
 فقال : « الشيخ من داخل المنزل برفع صوته مع الذي حبس البهائم . »

١ - من الطويل .

٢ - را ؛ ف : الخدوعي .

ويحكى أنه سيق للشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، كاملة (١) من الطعام الطيب ، و هؤلاء القوم عنده مع غيرهم ؛ فلم يلتفت الحاضرون لذلك الطعام وأعرضوا عنه وزهدوا فيه . فقام الشيخ أبو محمد عبد العزيز ورفع الغطاء و ذاقه ثم رده وبعد عنه . فقال الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه : « عبد العزيز أزهلكم لأنه عرف ما زهد فيه . » وكان يقول : « عبد العزيز سبع النفوس ، والنفطي ذكير النفوس ، وسالم جبل رأس . » وكان لعبد العزيز هذا تلميذ مبارك و خادم اسمه عبد الله و كان هو خادم الزنبيل أي يطلب لهم القوت . و كان عبد العزيز اذا فهم الجوع عن أصحابه يقول لهم : « الآن يجيء أبوكم عبد الله . » ولذلك يقال له : « أبونا عبد الله . » وكان عبد العزيز أميا وله الكتابة الحسنة والشعر الفائق وكانت بينه وبين الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، مكاتبات ومراسلات . كتب اليه عبد العزيز كتابا بأبيات منها :

شُعَيْبٌ وَلِيٌّ آللَّهِ سِرٌّ عِبَادِهِ
أَبُو مَدَّيْنٍ مُغْنِي الْأَنَامِ بِفَتْخَرِهِ
فِيَا جَنَّةَ الْمَأْوَى وَ يَا عِلْمَ الْهُدَى
وَ يَا نَاشِرًا عِلْمَ آلِلَّهِ بِأَمْرِهِ

١ - ك : آنية ؛ ك ٢٦٦٦ : مائة ؛ وفي المخطوطات الاخرى التي راجعناها : كاملة .

وهذه الكلمة اما أن تدل على نوع من الطعام واما أن تدل على اناء أو شيء يشبهه . ويميل الاستاذ محمد الفاسي الى المدلول الاول .

اما الاستاذ فور فهو يظن أن هذا اللفظ معرب عامي : قد اقتبسته الجنود من اللغة الاطالية كاملة = gamella) اذ احتلت العرب صقلية مدة من الزمن تجاوزت قرنا ونصفا و كانت الديار التونسية القاعدة الحربية التي منها يغزو المسلمون صقلية وابن قنفذ من مدينة قسنطينة التي كانت في هذا العصر من أعمال تونس . وقد لحظنا مرارا في هذا النص ان ابن قنفذ لا يكره استعمال صيغ عامية .

حَضَرَتْ وَ لَمْ تَحْضُرْ وَ غَبَّتْ وَ لَمْ تَغِبْ
 وَ مَا كُنْتُ فِي كُلِّ بِيْجَانِبِ طُورِهِ
 فَنُورِكَ نُورَ اللَّهِ يَهْدِي لَهُ وَ هَلْ
 إِلَى أَحَدٍ فِي النَّاسِ إِطْفَاءُ نُورِهِ (١)

وكتب اليه الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه ، كتابا عن جواب
 كتاب عبد العزيز اليه ، من فصوله : أما بعد فإنه من اتقى الله سبحانه
 وقاه ؛ ومن توكل عليه حق التوكل كفاه ؛ ومن استعاذ به نجاه ، ومن
 شكره والاه ؛ و من أقرضه جازاه ؛ و اجعل التقوى عماد قلبك و جلاء
 بصرك ؛ فإنه لا عمل لمن لا نية له و لا أجر لمن لا خشية له . و من
 فصوله : ضاق صدري حين أتت المراكب و لم نر لك فيها كتابا . فرأيتك
 في النوم و أنت تقول لي : ان كنت تريد بسلامك علي الدنيا ، فلا تسلم
 علي ، و لا نسلم عليك ؛ و ان كنت تريد الآخرة فسلامك يبلغني و ان كنت
 لم تكاتبني ، و سلامي يبلغك و ان لم أكتبك . فزال عن قلبي ما كنت أجده
 من القبض . فالله سبحانه لا يقطعك عني يقظة و لا نوما و السلام .

حَدِيثُكُمْ أَنَسَى نَفْسِي لَسْتُ أَتْرُكُهُ
 فَإِنَّ قَلْبِي بِكُمْ فِي أَعْظَمِ الشَّغْلِ
 لَوْلَا هُدَاكُمْ لَكَانَ النَّاسُ فِي عَمَةٍ
 لَا يَهْتَدُونَ إِلَى عِلْمٍ وَلَا عَمَلٍ
 لَكُمْ سَجَايَا وَأَخْلَاقُ مُطَهَّرَةٌ
 حُودَنَ فِي مِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَاللَّيْلِ
 مَاذَا أَقُولُ وَمَا أَبْقُوهُ مِنْ سَيْرٍ
 حَسَنَاءَ تُغْنِي عَنِ التَّفْصِيلِ وَالْجَمَلِ

١ - من الطويل .

لَا تُنْكِرُوا أَنَّ يَفُوقَ النَّاسَ بَعْضُهُمْ
الزَّيَارَةَ وَالْمَسْكَ الشَّهَادَةَ لِ (١)
وَالْمَرْءِ فِي قَبْضَةِ الْمِقْدَارِ مَقْوَدَةٌ
يَجْرِي عَلَى مَا جَرَى فِي اللَّوْحِ وَالْأَزَلِ (٢)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، أبو محمد عبد الخالق التونسي (٣) وهو الذي حدث عنه . قال : « أخبرني الشيخ أبو مدين أنه سمع برجل يسمى موسى وأنه يطير في الهواء ويمشي على الماء . قال : « وكان رجل يأتيني عند انصداع الفجر فيسألني عن مسائل . » قال أبو مدين : « فوقع في نفسي ليلة أنه موسى الذي سمعت به و طال علي الليل في انتظاره . فلما طلع الفجر سمعت نقر الباب فخرجت فاذا هو الرجل الذي يسألني ، فقلت له : أنت موسى ؟ فقال لي : نعم . ثم سألتني فأجبته وانصرف فجاءني يوما آخر و معه رجل فقال لي : صليت أنا وصاحبي هذا الصبح في بغداد ، و قدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الصبح فأعدنا معهم وجلسنا حتى صلينا الظهر . وأتينا بيت المقدس فوجدناهم في الظهر فقال صاحبي هذا : نعيد معهم . فقلت : لا . فقال لي : وترانا أعدنا الصبح بمكة . فقلت له : هكذا كان شيخي يفعل وبه أمرني . فاختلفنا وجئنا للسؤال عن هذا . » قال أبو مدين : « فقلت لهما : أما اعادتكم بمكة فالصلاة بمكة عين اليقين ، وببغداد علم اليقين ؛ وعين اليقين أولى من علم اليقين . وأما الأخرى ، بمكة ، أم القرى . و ما صلي بالأمهات فلا يعاد في البنات . فقنعا بالجواب وانصرفا . »

-
- ١ - كذا في كل المخطوطات : في ق : يحيى الزيادة ... وهذا الشطر غير متزن ولم يظهر لنا معناه .
 - ٢ - من البسيط .
 - ٣ - راجع التشوف ، ص ٣٢٥ .

وذكر بعضهم أن موسى هذا هو موسى أبو عمران الهروي وخبره عند
الاولياء مشهور في الطيران وغيره .

وَمُنْفَرِدٍ بِاللَّهِ هَامَ بِحُجْبِهِ
فَلَيْسَ لَهُ أُتْسٌ بِشَيْءٍ سِوَى الرَّبِّ
وَمَنْ كَانَ فِي دَعْوَى الْمَحَبَّةِ صَادِقًا
تَجَلَّتْ لَهُ الْأَنْوَارُ مِنْ غَيْرِ مَا حُجِّبِ (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو
الزهر ربيع والد الفقيه أبي محمد عبد الحق بن ربيع الأنصاري
البجائي . و ذكر الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن رشيد السبتي
عبد الحق هذا في رحلته . وأثنى عليه وقال : « كانت وفاته عام خمسة
وسبعين وسبعمائة وكان أبو الزهر كاتباً للعمال ببجاية واستفاد منهم
مالاً . فرأى ليلة في النوم أن القيامة قد قامت وأنه سيق به الى النار .
فسأل عن سبب ذلك . فقيل : بسبب ما اكتسبته من المال . فلما انتبه
تصدق بماله كله و تاب الى الله تعالى ولازم العبادة واستقل بالقراءة
واحترف بالخياطة . ثم سار يوماً الى والدته وأخبرها بضيق حاله .
فقال له « اعرف لأبيك داراً اغتصبت له وهذا رسمها فاطلبها . » فأخذ
رسمها و استفتى الفقهاء في الطلب وأذنوا له . فقال : « فقلت في نفسي :
قد استفتيت فقهاء الدنيا ولا بد أن أستفتي فقهاء الآخرة . » قال : « فسرت
الى الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه . فوجدته في مسجد أبي زكرياء
الزواوي بحومة اللولة (٢) من بجاية وسألته ، رضي الله عنه . فقال :
استفتيت ربك . فسكت . ثم قمنا الى الصلاة وكانت صلاة الصبح .
فلما كنت في الركعة الثانية عرض علي شبه سنة خفيفة ، ثم سمعت من

١- من الطويل ، راجع التشوف ، ص ٤١٧

٢- را ، ك : اللومة

يقول : اطلب حقا واجبا ! اطلب حقا واجبا ! فأتتمت الصلاة مع الامام وجلست بمجلس الشيخ أبي مدين لاستماع الذكر . فلما انصرف الناس أقبل علي الشيخ أبو مدين بوجه وقال لي : أفتاك ربك ؟ فقلت له : أفتاني يا سيدي . « وهذا من كرامة الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ونفع به . وهي أكثر من أن يحصرها مجلدات وأعظم بركاته ظهور ألف شيخ على يده ولذلك يقال له شيخ المشايخ رضي الله عنه .

مَنْ لَيْسَ يَسْعَى فِي التَّخْلَاصِ لِنَفْسِهِ
كَانَتْ سَعَايَتُهُ عَلَيْهِمْ لَا لَهَا
إِنَّ الدُّنُوبَ بِتَوْبَةٍ تُمَاحَى كَمَا
يُمَاحَوُ سُجُودُ السَّهْوِ ثِقَلَةً مِّنْ سَهْوِهَا (١)

وهذا القدر كاف فيما تيسر لي من ذكر ما قصدت ذكره ليعلم منه بعض أخبار الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الحميدة ومعانيه السديدة ومقامه الكبير وطريقه الشهير وفضل من اتبعه وسلك طريقه وجمعه . ولما اشتهر أمره وشاع في الافاق ذكره سعي به عند خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش فأمر السلطان بطلوعه من بجاية الى حضرته وكتب الى والي بجاية بالوصية عليه أن يحمل خير محمل . فأخذ الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه ، في السفر و شق ذلك على كثير من أصحابه وخافوا أن يكون وراء ذلك ما يغير النفوس . فقال لهم ، رضي الله عنه ، و عنهم : « شعيب شيخ كبير ضعيف لا قوة له للمشي ومنيته قدرت بغير هذا المكان ولا بد من الوصول الى موضع المنية . فقيض الله لي من يحملني الى مكان الدفن برفق ويسوقني الى مرام المقادير أحسن سوق . و القوم لا أراهم ولا يروني . » فطابت نفوسهم وذهب عنهم بأسهم وارتحل به الى أن وصل الى تلمسان . فلما رأى العباد قال لرفقائه :

١ - من الكامل .

« ما يقال لهذا المكان ؟ » ف قيل له : « العباد . » فقال : « مليح للرقاد ! » هكذا أخبرني الشيخ المسن الصالح العدل أبو عبد الله محمد البجائي من عدول تلمسان . وبها حدثني سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة . وقال بعضهم انه قال : « لا بأس بالنوم في هذا المكان ! » وقال بعضهم انه توفي بيسر وهو واد قريب من تلمسان و حمل الى العباد فاتفقت هناك منيته وشرفت تلك البقعة بتربته وهذا خاتمة كراماته ، رضي الله عنه .

قال أبو علي الصواف رحمه الله تعالى : لما احتضر الشيخ أبو مدين استحييت أن أقول له : أوصني ، فأتيته بغيري و قلت له : هذا فلان فأوصه فقال : سبحان الله وهل كان عمري كله معكم الا وصية ؟ و أي وصية أبلغ من مشاهدة الحال ؟ » قال أبو علي الصواف « وسمعتة عند النزاع وهو يقول : الله ! الله ! الله ! حتى رق صوته . » (١) وقال بعضهم : آخر ما سمع منه الحق . و قال بعضهم . آخر ما سمع منه الله الحق . و قال بعضهم : آخر ما سمع منه الله الحي . قلت : و أيا ما كان فهي خاتمة حسنة ومرتبة عليه مستحسنة ظهر فيها صدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يموت المرء على ما عاش عليه . «

ذَكَرْتُكَ لَا أَنِّي نَسَيْتُكَ لَمَّا حَيَّةً

وَ أَهْوُونَ مَا فِي الذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي

وَ كِدْتُ بِلَا وَجْدٍ أَمُوتُ مِنَ الْهَوَى

وَ هَاجَ عَلَيَّ الْقَلْبُ بِالْخَفَقَانِ

فَلَمَّا رَأَيْتُ الْوَجْدَ أَنَّكَ حَاضِرِي

شَهِدْتُكَ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانٍ

فَخَاطَبْتُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ

وَلَا حَظُّتُ مَعْلُومًا بِغَيْرِ عِيَانٍ (٢)

١ - راجع التشوف ، ص ٣٢١ .

٢ - من الطويل ، راجع التشوف ، ص ٣٢٢ .

و كانت وفاة الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، و رحمه ، في عام
أربعة وتسعين وخمسمائة وكان في ذلك اليوم محفل عظيم ومشهد جسيم
وفي ذلك اليوم تاب الشيخ الصالح أبو علي عمر الحباك التلمساني (١)
وخرج عن دنياه وكان يحدث بسبب ذلك فيقول : حضرت جنازة الشيخ
أبي مدين ، رضي الله عنه ، بالعباد ، خارج تلمسان . فما رأيت أعز
من الفقراء في ذلك اليوم و لا أذل من الأغنياء في ذلك اليوم - قال :
قلت في نفسي : اذا كانت هذه حالتهم في الدنيا فما ظنك بها في
الآخرة - قال : فدفعت أثوابي الى فقير بجنبي وأخذت مرقعته
وحلقت رأسي ودخلت على أهلي ، فصاحت زوجتي فقلت لها : ان لم
توافقيني فعديني ميتا . ثم غبت عنها مدة . فبينما أنا أمشي في
طريق من طرق تلمسان واذا بزوجتي ، و معها خادمها و بنتي على عنق
الخادم . فقالت لي نفسي : تنح عن الطريق لثلا تغير قلبها وتجدد عليها
المها . ثم خالفت نفسي وقهرتها وأخذت خبزة من عند الخباز وتعرضت
لزوجتي وقلت : من يشتري لي هذه الخبزة لله تعالى ؟ فلما تحققنتني
انصرفت مسرعة فرددت الخبزة للخباز . « (٢)

وما زال أبو علي عمر الحباك هذا يترقى الى أن صار من عباد الله
الصالحين المشهورين وتوفي ، رحمه الله ، عام ثلاثة عشر وستمائة .
فقلت : و قبر الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، بالعباد معهود
مشهور ، و حوض للزائرين . رأيت من قبور الأولياء كثيرا من تونس
الى مغرب الشمس ومنتهى بلد آسفي فما رأيت أنور من قبره ولا أشرق
ولا أظهر من سره وليس الخبر كالعيان . والدعاء عنده مستجاب ، قاله
الأعيان . وقد وقفت على ذلك غير ما مرة وأخبرني به من جربه . واختبرته ،
زرتة مرارا ورأيت له أسراراً فمنها زيارتي له مع أمير المومنين المتوكل

١ - التشوف ، ص ٤٥٨ .

٢ - التشوف ، ص ٤٥٩ .

على رب العالمين أبي العباس ابن الأمرء الراشدين وذلك في سنة احدى وستين وسبعمائة في وجهته من المغرب الى بلد قسنطينة وكان مما عاهد الله به عند قبره في ذلك اليوم أن من وصله بأذى فلا يجازيه به . وأخر زياراتي له عند اجتيازي عليه في ارتحالي من المغرب الى بلد قسنطينة وذلك في سنة ست وسبعين وسبعمائة . و في هذه السنة كانت المجاعة العظيمة بالمغرب . و عم الخراب به . فوردت تلمسان والحالة هذه و أقمت بها قرب شهر غير واحد للطريق . وكان وزيرها اذا استشرته في الخروج منعني وتبرأ مني . فكثرت علي النفقة وبلغت المعينة منها فيما لا بد منه لعيالنا ومن تعلق بنا أربعة دنانير ذهباً في صبيحة كل يوم دون المزية العظمى واليد الكبرى التي يجعل علينا من يبيع لنا الطعام . فلجأت الى قبر الشيخ أبي مدين و ركعت هناك ما قدر لي . ثم قرأت جملة من القرآن وأخذت في التسبيح والتهليل في نفسي حتى رق قلبي واجتمع خاطري فاستغفرت الله تعالى و صليت على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ثم قلت : يا سيدي أبا مدين نحن أضيافك وقد نزلنا بجوارك ولنا معك وسيلة عهد سند متصل قريب غير منفصل و الغرض تيسير الانتقال والحفظ في كل الأحوال . اللهم انا نتوسل اليك بأنبيائك و أوليائك ، يرسلنا في ذلك يا قريب ، يا سميع الدعاء يا حي ، يا قيوم يا ذا الجلال والاکرام ! وكررت الدعاء مرارا و صليت على سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم . و حمدت الله وانصرفت فيسر الله تعالى علي فيما طلبته ووقع ما أملته . و ارتحلت بعد أيام يسيرة ورأيت في طريقنا من انقلاب الشر خيرا ما كان يتعجب به من شاهده . و كان أمر الطريق في الخوف والجوع ما مقتضاه أن كل من يقع قدمنا عليه يتعجب في وصولنا سالمين ثم يتأسف علينا عند ارتحالنا حتى أن منهم من يسمعنا ضرب الاكف تحسرا علينا . وانتهى سفرنا على وفق اختيارنا والحمد لله . و ذلك عندنا معهود من كرامات الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه . والدعاء عند قبره مستجاب وقبره في بيت صغير ؛ بجنبه نحو القبرين ، أحدهما ، في غالب

ظني ، الخديم بلال و [غلف] (١) على جملتهم بالألواح دفعا لمن يريد
الدفن هنا والله أعلم . وأما قبر الشيخ من بين هذه القبور فهو أنك
إذا دخلت البيت فارجع على يمينك مستقبلا ، فالذي يقع على يسارك هو
قبره . وهذا المكان عادة الداخل أن يتنفل فيه . وهو مكان مصلى
واحد . فاذا انتقلت فاستند الى القبلة بانحراف وظهرك في ركن
الجدار ، و سلم حينئذ على الشيخ من غير تقبيل وقل : جزاك الله
خيرا عن اجتهادك في نفسك وفيمن تعلق بك من تلامذتك و رحمك
و نفعك بعلمك وطاعتك ونفع بك . ثم تقرأ ماتيسر وتذكر ما تيسر ثم تدعو
بما شئت و ان تيسرت لك صدقة للضعفاء والمساكين الملازمين على الباب
فادفعها . فان كان أحد يريد الزيارة فخفف والا فاجلس ما شئت الى
أي وقت . و من الفقراء من يبیت هنالك . وتحت هذا البيت وبجواره
قبور كثيرة متزاحمة لالتماس بركة الشيخ أبي مدين رضي الله عنه .
وزاويته قريب منه . و لها أوقاف يجري من ذلك على المنقطعين للعبادة
و بجواره جامع للخطبة و مدرسة للعلم . و العباد منظر شريف و بقعة
مباركة وطئها الصالحون وسكنها المتعبدون و في داخل المصر رابطة
التونسي نفع الله به ، و هو أبو محمد عبد السلام التونسي (٢) وأخذ
عن عمه عبد العزيز (٣) . و عبد العزيز هذا من الفقهاء ومن أهل
الزهد في الدنيا . و قرأ على الشيخ أبي عمران الفاسي المدفون (٤) بالقيراون،
نفع الله به ، و قرأ أيضا على الشيخ أبي اسحاق التونسي وغيرهما
ودخل الأندلس واستقر بآغمات وهنالك وقفت على قبره سنة ثلاث
وستين وسبعمائة . و الناس يزورونه . [و رأيت بآغمات صلحاء

١ - ك : سقط ما بين منعقفين ، و في را و ف : مخلف .

٢ - التشوف ، ص ٨٨ .

٣ - التشوف ، ص ٦٨ .

٤ - التشوف ، ص ٦٤ .

أخياراً] (١) . و كانت وفاة عبد العزيز التونسي سنة ست وثمانين وأربعمائة . وكان مدرسا بأغمت وانتفع الناس عليه . ولما رأى جملة من تلامذته نالوا بالفقه الخطط ترك التدريس وقال : « صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص . » فاشتغل بالسياحة ثم رجع الى تعليم علم التصوف مدة . فزار يوما بعض اخوانه . فوجد امرأة على الباب فاستأذن ودخل فوجدهم يأكلون الخبز ويشربون اللبن من القربة . فسألهم عن المرأة . فقالوا له : « هي صاحبة القربة اشترينا منها لبنا بشعير ولم يحضر الاناء فأردنا الشرب من القربة . » فسألهم عن دفع الشعير . فقالوا له « اذا أخرجنا القربة نخرج الشعير . » قال : « سبحان الله ! كرهنا لكم الفقه لما ينال به من مراتب الدنيا فَضَيَعْتُمْ معرفة الحلال والحرام ! هذا الذي فعلتم ربا لأنه طعام بطعام متأخر . » فعاد الى تدريس الفقه . و كان ابن أخيه عبد السلام الذي بعباد تلمسان ساح معه ونال من بركته . ولم يكن عند عبد السلام من الفقه غير مسائل يسيرة . كان يوما في مجلسه فدخل عليه الأخوان أبو بكر بن مخلوف وأخوه محمد من تلامذة الفقيه أبي الفضل ابن النحوي صاحب القصيدة الجيميّة التي أولها :

إِشْتَدِّي أَرْمَةً تَنْفَرُ رِجْ
قَدْ آذَنَ كَيْلِكَ بِالْبَلْجِ
وَظَلَامُ اللَّيْلِ لَهُ سُجْرُ
حَتَّى يَغْشَاةَ أَبُوسُ الشَّرْجِ
وَ سَحَابُ التَّخْيِيرِ لَهَا مَطَرُ
فَإِذَا جَاءَ الْإِبَّانُ تَجْجِي (٢)

١- را ، ك : سقط ما بين منعقفين .

٢- من المتدارك .

فاعترضنا على عبد السلام في كلامه وناظرناه وكان لهما معرفة
بالمناظرة فدعا الله تعالى عليهما فماتا في جمعة واحدة (١) . و أبو
الفضل (٢) المذكور أدركه الشيخ أبو الحسن ابن حرزهم وهو
صغير و تبرك به ودعا له ونال من بركته ، وحمد الله تعالى ، والده على
ذلك وقال له : « يا ولدي حدث عندك بدعاء أبي الفضل سر لم أعهدك فيك . »
وحكى بعضهم أن أبا الفضل هذا أحيا ليلة بسجدة يدعو فيها على
ابن دبوس قاضي مدينة فاس وخرج مسافرا ، فخرج ولد هذا القاضي
في جملة من شيعه فقال : « يا ولدي ارجع تحضر جنازة والدك . » فتعجب
ورجع فسمع الصراخ في الدار فسأل فقالوا له : « توفي والدك . »
وكان أبو الفضل هذا يعتني بالاحياء كثيرا ويقطع نهار رمضان
بمطالعتة و أفتى لمن أكره على اليمين في أن الاحياء ليس هو عنده
في الزمان الذي أمر بجمعه واحراقه الا حنت عليه . و انتصر للغزالي
فسمع بذلك الغزالي . فسره وشكره على ذلك . و شرق أخوه فسمع به
الغزالي فهيا له ضيافة عظيمة يظن أنه أبو الفضل . و توفي أبو الفضل
يوسف بن محمد بن يوسف ابن النحوي بموضع قلعة بني حماد سنة ثلاث
عشرة وخمسائة .

وحدثوا عن عبد السلام التونسي أنه كان يعمل بيده في أرضه .
فقصده والي تلمسان للتبرك فنزل عن فرسه وفرش له فتاه برنوسه
يجلس عليه . فقال له عبد السلام : « ما هذه الاخلاق ؟ أين تجد غدا
برنوسا تجلس عليه ؟ » فاستحيا وقام وجلس على الأرض . و كانت لعبد
السلام أحوال عجيبة . وبلغ الغاية في الزهد والتقشف و كان اذا
صلى الجمعة بتلمسان حبسه الناس عند الخروج للدعاء زمانا طويلا
واحدا بعد واحد . و رابطته بالعباد معروفة .

١ - التشوف ، ص ٨٩ .

٢ - التشوف ، ص ٧٢ .

فهذا ما تيسر لي من ذكر الشيخ أبي مدين وذكر من اجتلبه
الذكر بسببه . ولنختتم كتابي هذا بنكت تنفع الفقير وتعز الحقيير .
فمنها أن يقول قائل : « كيف يفعل من يريد أن يتوب ؟ »
قلنا : « التوبة الرجوع الى الله تعالى . قال سعيد بن جبير ،
رضي الله عنه ، في قوله تعالى : « فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَابِينِ
غُفُورًا » (١) قال : « هم الذين يرجعون الى الله . التوبة الندم على
الفعل القبيح و العزم ألا يعود اليه أبدا . و هو حال الاصرار .
قال الله تعالى : « وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (٢) فالذي
يريد أن يتوب يترك الذنوب من فعله والخيانة من ضميره والمداهنة من
معاملته ويرد المظالم على أهلها ويؤدي كل ما كان من حق الله تعالى
عليه قد فرط فيه و سواء كان لله تعالى أو للعباد . قال الله :
« .. الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٣) . ثم يشتغل في صلاح قوته لأن القوت من الدين
كالرأس من الجسد ؛ ويكثر من الاستغفار ؛ ويتقرب الى الله تعالى بكل
عبادة استطاع ؛ ويسأله ، جل وعلا ، القبول والتوفيق و الاهتداء الى
سواء الطريق . قال الله تعالى : « وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ » (٤) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أيها
الناس توبوا فاني أتوب في اليوم سبعين مرة . »

وينبغي للتائب أن يعمر قلبه دائما بقرب الأجل وحضور الموت
و فوات الأمل مع الله تعالى . و المحرك لذلك خوف الوعيد ، و رجاء
الموعود ، والتحسر على البطالة واللعب . فاذا حصلت هذه الرتبة

١ - سورة الاسرار : ٢٥ .

٢ - سورة آل عمران : ١٢٥ .

٣ - سورة البقرة : ١٦٠ .

٤ - سورة الحجرات : ١١ .

للتائب وتحققها و ألفها انتقل الى شكر الله تعالى دائما على ما من به عليه وهداه بفضلته اليه ، مع محاسبة النفس في كل وقت . ويدفع هواه ويخالف شهوته لأن على قدر تمكن الشهوة في النفس يقع الضعف . ولا يرجع الى الفترة بوجه ؛ فانه علامة الخذلان . ويحارب الشيطان ما استطاع فلا يقدم على أي فعل كان حتى يفرق فيه بين حقه و باطله . وهذا الورع الكامل . فاذا حصلت هذه الرتبة الثانية ، وعلامة حصولها مشاهدة القلب سطوة (١) الرب ، انتقل الى رتبة ثالثة وهي الزهد في الدنيا لأن آخر درجة من الورع أول درجة من الزهد .

والزهد ميل النفوس الى ما دعا الله سبحانه اليه و الانقطاع الى خدمته بنسيان ما يقع به طباعها ، وتفسده استراحة النفس وميلها الى رخص الفقهاء . وقد سئل بعضهم عن الزهد . فقال : هو ترك الحرام . فاذا حصلت هذه الرتبة الثالثة رجي القبول في الله تعالى . والفضل بيد الله سبحانه ، يؤتيه من يشاء .

فان قلت : هذه جملة كلية واشارات عليية و مراتب سنوية ولا خفاء أنه طريق القصد الى الله تعالى ، لكن قرب لي ما يفعله المخلط اذا تاب ، قلنا : نعم أول ما يفعله ما صدرت به هذه الخاتمة وهي الرتبة الأولى . ثم ان كانت عليه التباعات المالية فيرد المعينات على أربابها المعلومين ، و ان اختلط المأخوذ و تنوع فيقع الحصاص كالمفلس وان جهل المالك أو فقد فيتصدق به عنه ويكون فيه أن يفعل ذلك غيره به و قد يختلف ذلك بحسب حاجته . وهل يتولى الصدقة على الضعفاء بنفسه ؟ فيه خلاف بين الفقهاء . ولا بد أن يطلب المحاللة فيما اغتلت ؛ وليس له أن يجبس الشيء المغصوب حتى يحلله صاحبه في غلته ان امتنع ، لكن يرغبه ، فان أبي رفع أمره الى الحاكم ويعلمه بابايته . فيأمر الحاكم ان رأى ذلك حسنا برجوع الشيء المغصوب ولانه تباعة

١ - را ، ف ، ق : بسطوات الرب .

عليه . فاذا حصل حكم الحاكم كأنه حلالك ، لأن حكم الحاكم يرفع الخلاف .
وهذه من النكت الغريبة . وكل ما استهلكه فعليه قيمته الا ان يكون من
المكيلات والموزونات فعليه المثل . ويتفقد نكاحه هل به شبهة أم لا .
فان قلت هذا حكم من ماله كله حرام ، فما حكم من امتزج
ماله الحلال بالحرام ؟ قلنا : يخرج مقدار الحرام بالتحري والاحتياط
ويطهر الحلال بالصدقة .

فان قلت هذا حكم من اكتسبه بنفسه ، فما حكم الوارث كابن
الغاصب ؟ قلنا : أما المعين فيرده باتفاق وغير المعين اما أن يعلم أنه
حلال أو يعلم أنه حرام و اما أن يجهل الحلال ، فالأول حلال باتفاق
وفي الثاني خلاف معروف في مذهبنا و الترك أحسن . ورأيت فتيا أسياننا
بالمغرب بحليته . و الثالث حلال وتركه من باب الورع .

و من فعل كبار الصالحين كابن القاسم الذي ترك مال أبيه وقال :
« كان تاجرا ولم يحسن الفقه فربما دخل عليه الربا . » و كالمحاسبى
الذي ترك مال أبيه وقال : « كان يقول بالقدر . » وهكذا كله من
الورع . و قد أكرى ابن القاسم دابة للسفر . فناوله انسان كتابا .
فقال له : « لا أحمله ، فاني لم أشرطه على صاحب الدابة . » و كورع
أحمد بن حنبل الذي كان لا يأكل البطيخ وقال : « لم يبلغني كيف كان
يأكله رسول الله صلى الله عليه وسلم . » وكان الشيخ أبو مدين ،
رضي الله عنه ، لا يأكل النبات الذي كان يقال له بقل الهوم (١) لذكر اسم
الكفر عليه .

١ - كذا في ق وفي غيره من المخطوطات : بقل اليهود ، بقل
السوم ، بقل الوهم ، بقل الوهام . جاء في اقرب الموارد :
« هوم المجوس : شجر شبيه بالياسمين ، فيها بعض الحلاوة
والحدة و أجود زهرها الأغبر الذي تعلوه صفرة ويكون
حديثا . و سميت هوم المجوس لأن عبدة النار يستعملونها
في عبادتهم و ينسبون لها منافع عجيبة .

فان قلت . فما حكم التائب في الشيء المغصوب اذا باعه ؟ قلنا : ان بقيت عينه فربه بالخيار بين الامضاء والتمن والنقض . وان فات فقال ابن القاسم : عليه الأكثر من ثلاثة ، قيمته يوم الغصب أو قيمته يوم البيع لأنه تعدى أو ثمنه . فان قلت : فما حكم ولد الغاصب المتعلق بأبيه اذا تاب وأبوه بالحياة ؟ قلت : لا يخلو من وجهين وهو اما أن يكون مستقلا ببيته وكسبه من مال أبيه واما أن يكون في عيال أبيه . فان كان الأول فحكمه حكم الغاصب اذا تاب . ويسأل عن الأرباب . وان كان الثاني امتنع من الأكل ومن اللباس وان أدى ذلك الى سخط أبيه فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وان كان [في مال أبيه شبهة] (١) امتنع للورع [وتطلب في البعد . فان عزم عليه أبوه أكل و صغر اللقم وأطال المضغ] (٢) و كذلك عند أخيه و أخته لأن حقهما مؤكد .

فان قلت : هذا حكم الغاصب التائب . فما حكمه في الطاعة المالية اذا لم يتب ؟ قلنا : لا يحج به بوجه ولا يكفر منه ولا يزكيه بوجه لأن الزكاة اخراج جزء منه و عليه هو اخراجه كله . وما أخذ الساعي منه و صرفه للمساكين جاز .

فان قلت : من ماله متشابه يحج به أم لا ؟ قلنا : يتحرى الطيب ما استطاع ؛ فان لم يقدر حج بالمتشابه ، فاذا وصل الميقات اجتنبه من حين يحرم الى انصرافه من عمل الحج .

فان قلت : اذا لم يخرج الغاصب الزكاة كما قلت هل للفقير ان يقبل منه زكاة الزرع أم لا ؟ قلنا : اذا زرع الزريعة المغصوبة على ملكه وجناها على ملكه فليصرف بذلك كله على ربه . فان لم يصرفه

١ - ك : وان كان [بياض] امتنع بالورع .
٢ - ك : .. بالورع [بياض] وكذلك عند أخيه .

وأخرج زكاته ففي قبول الفقير لها خلاف . يأخذها من قلد من قال ان الزرع للغاصب . وكذلك الحكم اذا اغتصب الأرض وحدها فان غصب الأرض لرجل والزريعة لرجل فلا تحل هذه الزكاة الا على قول من يقول : ان الزرع لمتولي العمل . فان قلت : وهل يجب على المسكين السؤال عن هذا أم لا ؟ قلنا : ان ظهرت علامة الغصب سأل و الا فلا . فان قلت : هذا حكم التائب الذي في ماله الفساد بالغصب والظلم قد ظهرت قواعده ، فما حكم التائب الذي في ماله الفساد بالمعاوضات المنهي عنها في الشرع كالصرف الفاسد وشبهه ؟ قلنا : يردده الأعراض القائمة . وكذلك زيادة الربا وشبه ذلك . فان جهل المالك تصدق به عنه .

و كل ما باع مما لا يحل يبعه كالخمر والعنب لعصره فان ثمنه مصروف للمساكين ولا يرد على صاحبه .

وفي ثمن جلد الميتة خلاف هل يتصدق به أم لا ؟ ويتصدق بكراء الحرام ككراء الدار لمن يعتصر فيها خمرًا أو يبيعه فيها أو يعدها للزنا ونحو ذلك .

وأما من باع سيفًا لقاطع الطريق ، فانه يفسخ البيع والكراهة شديدة . فان فات فقد اختلف في الصدقة بثمنه .

فان قلت . هذا اذا عرف مقدار الفساد وعرف صاحب المال فما الحكم اذا جهل ذلك ؟ قلنا : يتحرى على الاحتياط ويتصدق به وكذلك اذا علمه وجهل صاحبه . و أما ان جهل المقدار وعلم المالك فيحتاط معه .

فان قلت : هذا حكم المبيع المحسوس قد ظهر ؛ فما حكم ما بيع مما هو معنى من المعاني كالغناء والنياحة ؟ قلنا : حكم ذلك الصدقة خاصة ولا ينتفع به آخذه لأنه حرام ولا يردده على صاحبه أدبًا له .

فان قلت : هذا التائب الذي صفا قوته هل يجب عليه سؤال أهل السوق كالجزار أو الخباز أم لا ؟ قلنا : اذا قامت الشبهة على طرق

الغصب أو حدوث العقد الفاسد في عين المبيع ، فلا يبتاع منه بوجه ؛
و ان قامت الشبهة في جملة السوق وجب السؤال ؛ وان انتفت الشبهة
اشترى من غير سؤال .

فان قلت : اذا ظهر موجب السؤال هل يتعدد أم لا ؟ كما اذا
أخبره أنه اشتراه من فلان هل يسأل فلانا أم لا ؟ قلت : هذا لا ينضبط
الا بزوال الربية وسكون النفس (١) بحيث زالت الربية بسؤال واحد
أو بسؤالين قدم على الشراء و الا سأل حتى تزول الربية . فان قلنا :
ظهرت الربية ؛ فان لم تظهر فلا يسأل ، لان سؤاله أذية وتهمة
بالسوء ، و قد يوحش النفوس بذلك و يخاف أيضا من حديث الرياء .
و كذلك لا يجب السؤال اذا حضر طعام من علم أنه دخل بيده مال
حرام ولا يدري هل بقي أم لا .

فان قلت : من ماله كله حرام أو عليه من التباعات ما يستغرق
ما بيده من الحلال ، هل للتائب أن يعامله أم لا ؟ قلنا : ينبغي لأهل الورع
البعد من ذلك جملة و في مذهبننا في هذه المعاملة أربعة أقوال : الأول
لا تجوز معاملته بوجه ، و سواء كانت بمعاوضة أو بغير معاوضة . فلا
يباع ولا تقبل هديته ولا يؤكل طعامه . والقول الثاني ان كانت
بمعاوضة بغير نقص من القيمة جازت و الا فلا . والقول الثالث تجوز
فيما أفاده من ذلك المال بالارث والهبة و غير ذلك من الوجوه الجائزة
دون ما اغتصبه . القول الرابع : المعاملة جائزة بعوض كانت أو بغير
عوض . وقال ابن رشد : الخلاف انما هو اذا يئس من أصحاب التباعات
أو جهلت أسماؤهم و الا فيتعين القول الأول . فان قلت : ما يأخذ به
التائب من هذه الأقوال الأربعة حيث لا ضرورة ولا مخافة عذر ؟ قلنا

١ - را : .. الا بزوال الربية ويكون النفس بحيث ... ؛ ف :
الا بزوال الربية ويكون بحيث زالت الربية ... ؛ ك : الا
بزوال الربية ويكون النفس بحيث لو زالت الربية ...

يأخذ بالقول الأول ، و حيث الضرورة أو وجدت المداراة أخذنا بالقول الثاني ، أي يتصدق بقيمة ما أكل أو يعين ما أخذ . و القول الثالث والرابع هما عمدة الفقهاء المشتبهين والمستغرقين . حكى لنا شيخنا الفقيه الشهير أبو الحسن علي الصغير أنه كان مسافرا من فاس . فلقبه بعض الظلمة في طريقه وحلف له بالطلاق ما يتعدى ذلك المكان ولا (١) ينزل الا عنده حرصا على حصول البركة . قال : فوقف الشيخ ساعة ثم قال لأصحابه : انزلوا على بركة الله تعالى أخذا بالقول الرابع (٢) قلت : وهو لابن مزين وغيره .

فان قلت : هذا حكم من يشتري منه ، فما حكم من يبيع له بالدرهم (٣) والسلعة عند بائعها ؟ قلنا : يصرفه جهد الاستطاعة وهذا شأن أهل الفضل والصلاح . و قد رأيت بعض الفضلاء يتردد في البقل المزبل من بول دواب الظلمة وهل يؤكل أم لا . وهذه كانت سير الصالحين فان باع له فالثمن مكروه و ما اشتراه الظالم بثمن الى أجل أو الى غير أجل الا أنه يدفعه فأكل ذلك الشيء حلال على الصحيح . فان قلت هذه المعاملة التالية قد تقررت قواعدها فما الجواب في معاملة التائب البدنية مع جبايرة الدنيا ؟ قلنا : الاعتزال للتائب أولى وأسلم حتى لا يرى ظلما بوجه . فان وقع اللقاء فالسكوت أسلم وان دعى الى جواب احتاط فيه وان طلب في دعاء دعا بصلاح الحال مع الله تعالى وطول العمر في الطاعة وبالتوفيق للخير و ما يناسب هذا ولا يدعو للظالم بطول البقاء المطلق من غير قيد . قال رسول الله ، صلى

- ١ - ك : وحلف له بالطلاق الا ينزل الا عنده .
- ٢ - ك : انزلوا على بركة الله [بياض] قلت : وهو
- ٣ - ك : ... بالدرهم [بياض] هذا شأن أهل الفضل والصلاح [بياض] وهذه سير الصالحين فان باع له بالثمن [بياض] بثمن الى أجل أو الى غير أجل الا أنه [بياض] فأكل ذلك الشيء حلال ...

الله عليه وسلم : من دعا لظالم بطول العمر أو البقاء فقد أحب ان يعصى الله في أرضه . ولا يغتر التائب بفعل أفاضل الفقهاء لأنهم يعلمون كيف يدخلون و يخرجون بالكلام وغيره كتورياتهم بقولهم المسموع عنك معروف أو بدعائهم مثل : الله يحفظ أحوالك . والمراد : الحظ .

وقد توفي بعض الظلمة بتونس . ففزعت غلمانها الي المؤذن محرز ، نفع الله به . قلما أعلموه وقف ورفع صوته وقال : « مات و أرضاكم بذلك ولا شيء فيه . »

فان قلت : من ترجى بركته اذا رفعت له مظلمة هل يدعو على فاعلها أم لا ؟ قلنا : ان كان من العمال الفجار فلا بأس بالدعاء عليه سرا أو جهرا ، الا أن يتقي فيكتم ذلك . و ان كان السلطان هو الجائر فلا يدعو عليه هو ولا المظلوم بوجه لقوله صلى الله عليه وسلم : « ان عدل فاشكروا ، و ان جار فاصبروا . » [وقال عليه الصلاة والسلام : « أدوا الذي عليكم ويسألهم الله الذي عليهم . » ويعني ، بالذي علينا الطاعة] (١) وقال ، عليه السلام : « من دعا على السلطان سلطه الله عليه . » وقيل لبعض الصالحين : « ان سلطاننا يجور علينا . » فقال : « أخاف أن تفتقدوه و يأتي من هو أشد منه في الجور فيصرف الأمر لله تعالى . »

فان قلت : هذه معاملة التائب المالية والبدنية قد ظهرت فما يفعله في خاصة (٢) نفسه ؟ قلنا : يجتهد في حصول المرتبة الأولى التي أشرنا اليها بعد اصلاح عقيدته بيقينه ان الله تعالى واحد في ملكه ، لا شريك له ، قديم لا أول له ، دائم لا آخر له ، حي ، عالم ، قادر ، قاهر ، سميع ، بصير ، متكلم ، مرید ، فعال لما يريد ، منزه

١ - ك : سقط ما بين منعقفين .

٢ - را ، ك : حالة .

عن التغير والزوال ، لا يحويه مكان ولا يشغله شأن ، كل مخلوق مقهور بقدرته ، لا تتحرك ذرة في الأرض و لا في السماء الا باذنه ، خالق لكل موجود ، غني عن العباد ، لا تشبه ذاته الذوات ، ولا صفاته الصفات ، مبدئ ، معيد ، فرد ، صمد ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، (١) بعث الرسل لخلقهم اقامة للحجة عليهم ، وختم الرسالة بسيد الأولين والآخريين محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ونسخ بشريعته جميع الشرائع ، و ألزم عباده تصديق نبيه ، عليه السلام ، في كل ما أخبر من أمور الدنيا والآخرة . وأول أحوالها سؤال الملكين في القبر [ولا يقبل ايمان من لم يعتقد ذلك] (٢) وآخر أحوالها الشفاعة و وجودها من الانبياء والعلماء والصلحاء . (٣)

كامل كتاب ابن الخطيب ، رحمه الله تعالى ، في فضائل الشيخ الصالح الزاهد القطب أبي مدين شعيب وأصحاب الولاية ، نفع الله بهم ، والحمد لله كثيرا والصلاة والتسليم على سيد الأولين والآخريين مولانا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، و على آله وأصحابه وأزواجه ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (٤) .

-
- ١ - سورة الاخلاص : ٣ ، ٤ .
 - ٢ - ك : سقط ما بين منعقفين .
 - ٣ - ك : ... والعلماء والصلحاء ولا يقبل من لم يعتقد ذلك
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .
 - ٤ - را ، ك : انتهى أنس الفقير لابن قنغد رحمه الله .

بيان الكتب المشار اليها في التعليقات

- تحفة الزائر ببعض مناقب سيدي الحاج احمد بن عاشر
غير مطبوع .
- تعبير الانفاس في التعريف بالشيخ ابي العباس لمحمد بن محمد
المدعو بابن المؤقت ، طبعة حجرية ، فاس 1918/1336 .
- التشوف الي رجال التصوف ، طبعة الرباط ، أ. فور ، 1958/1378
لابي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي عرف بابن الزييات .
- جذوة الاقتباس في من حل من الاعلام مدينة فاس ، طبعة
فاس ، سنة 1892/1309 ، لاحمد بن محمد بن احمد المعروف بابن القاضي
- مجلة هسبيريس ، الجزء 31 ، سنة 1944/1363 والجزء 43 ،
سنة 1956/1376 .
- فهرس المخطوطات العربية ، اعتنى بتأليفه يد. س. علوش
وعبد الله الرجراجي ، الجزء الثاني ، الرباط ، 1958/1378 .

الفهارس

- الفهرس الأول في ذكر اسماء الرجال والنساء .
- الفهرس الثاني في ذكر اسماء الاماكن .
- الفهرس الثالث في ذكر الامم والقبائل والعشائر .
- الفهرس الرابع في اسماء الكتب المذكورة .
- الفهرس الخامس لأبيات .



في ذكر أسماء الرجال والنساء

- 1 -

- 2I أمغار ، ابو جعفر
- 39 ابراهيم بن ادهم
- 62 ابو ابراهيم اودار
- 28 ابو احمد
- 62 احمد بن احمد الغبريني البجائي ، ابو العباس
- III ، 43 احمد بن حنبل
- II7 ، 8I ، 75 ، I .. احمد ابن الخطيب ، ابو العباس (صاحب انس الفقير)
- 69 ، 68 ، 67 ، 66 احمد بن محمد بن عثمان بن البناء العددي المراكشي ، ابو العباس
- 94 ، 93 احمد بن مرزوق التلمساني ، ابو العباس
- 69 احمد المكناسي ، ابو العباس
- 84 ، 79 ، IO ، 9 ، 7 احمد بن عاشر الاندلسي ، ابو العباس
- 78 احمد بن القباب ، ابو العباس
- 6I احمد بن يوسف ، ابو العباس
- 52 ، 44 الامراء الراشدون
- IO6 ابو اسحاق ، التونسي
- 2I ، 2 اويس القرني
- 32 ايوب بن عبد الله الفهري السبتي ، ابو الصبر
- 64 ، 42 ، 22 ، 2I .. ايوب بن سعيد الصنهاجي ، السارية ، ابو شعيب

- ب -

93 ، 4 البخاري
6 البراء بن مالك
88 ، 87 ابن بطان
5 ، 4 ابو بكر الصديق
93 ، 71 ، 42 ابو بكر القاضي ، ابن العربي
107 ابو بكر بن مخلوف
106 ، 93 بلال
	ابن البناء = احمد بن محمد بن عثمان
95 البسطامي

- ت -

62 التادلي ، صاحب التشوف
26 ، 14 الترمذي ، ابو عيسى
69 ابن تيجلات ، ابو عبد الله

- ث -

68 الثعالبي المراكشي ، ابو العباس
53 ثعلب

- ج -

69 ابن جزا بن بري
91 ابن جميل القصري المعلم ، ابو عبد الله
93 ، 43 الجنيد ، ابو القاسم
	ابو جعفر آمغار = آمغار

-ح-

- ابن الحاجب ، أبو عمرو 78 ، 68 ، 65 ، 54 ، 49
- الحاحيون 65 ، 64
- حبيب العجمي 93 ، 43
- الحجاج 64
- ابن حرزهم ، أبو الحسن 25 ، 23 ، 20 ، I6 ، I3 ، I2
- 108 ، 93 ، 42 ، ، 3I ،
- أبو حمو ، صاحب تلمسان 53
- الحسن البصري 93 ، 43
- حسن ابن الخطيب علي بن اللمعة ، والد ابن قنفذ صاحب
انس الفقير 46
- حسن بن محمد الغافقي الصواف ، أبو علي 103 ، 38 ، 36 ، 32
- أبو الحسن المريني 88 ، 52 ، 5I ، 50 ، 47 ، 24
- أبو الحسن علي الصغير المغربي 115 ، 53 ، 24 ، 23
- حسن بن أبي القاسم بن باديس ، أبو علي 50
- أبو الحسن بن يوسف الصنهاجي 72
- حسين بن خلف الله بن باديس ، أبو علي 92
- ابن الحسين اللجائي ، أبو علي 47
- الحوفي 77

-خ-

- خالد بن الوليد 6

-د-

- داود الطائي 93 ، 43
- ابن دبوس ، قاضي مدينة فاس 108

64	الدكاليون
27	الدقاق ، ابو عبد الله
97	الدهماني

- ذ -

5	ابو ذر الصحابي
---	-------	----------------

- ر -

24 ، 23	راشد بن أبي راشد الوليدي
IOI	ربيع ، أبو زهر
78 ، 68	أبو الربيع اللجائي
60	ابو الربيع المديوني
84 ، 74	أبو الربيع سليمان
44	ابن رضوان الفقيه
II4	ابن رشد

- ز -

9I	أبو زكرياء السائح
64	ابن زفان
		أبو زيد طيفور = البسطامي

- ط -

96 ، 95 ، 93 ، 43	أبو طالب المكي
97	طاهر الحروغي

- ك -

27 ابن كحيل البجائي ، أبو محمد

- ل -

اللجائي = ابن الحسين ، أبو علي

اللجائي = علي ، أبو الحسن

- م -

64 الماجريون
80 مؤمنة التلمسانية
III ، I4 المحاسبي
II6 محرز المؤذن
II7 ، I05 ، 58 ، 55 ، 5 ، I محمد ، النبي صلى الله عليه وسلم
I07 محمد ، أخو أبي بكر بن مخلوف
36 محمد ، ولد أبي مدين
95 ، 37 محمد بن ابراهيم الانصاري ، أبو عبد الله ،
9I محمد بن أحمد الزناتي ، أبو عبد الله
I03 محمد البجائي ، أبو عبد الله
76 محمد الجناتي ، أبو عبد الله
92 محمد بن حمادو الصنهاجي ، أبو عبد الله
I0I محمد بن رشيد السبتي
أبو محمد صالح الهسكوري = صالح الهسكوري
45 محمد بن أبي محمد عبد الله الصفار ، أبو عبد الله
75 محمد المشنزائي ، أبو عبد الله
محمد بن عباد الرندي ، أبو عبد الله = ابن عباد

- محمد بن عبد السلام الهواري التونسي ، أبو عبد الله ، شارح
 49 ابن حاجب
- محمد بن علي ، أبو عبد الله
 39
- أبو محمد الفشتالي
 74
- محمد بن أبي القاسم السجلماسي ، أبو عبد الله
 62
- محمد بن يحيى الباهلي المسفر ، أبو عبد الله .. 53 ، 54 ، 56 ، 57 ، 60
 30 أبو جعفر
- محفوظ بن جعفر
 97
- ابن مخلوف = أبو بكر بن مخلوف
- ابن أبي مدين
 45
- أبو مدين .. I ، II ، I2 ، I4 ، I5 ، I6 ، I7 ، 2I ، 26 ، 27 ، 28 ، 29 ، 30
 3I ، 32 ، 33 ، 34 ، 35 ، 36 ، 37 ، 38 ، 39 ، 42 ، 45 ، 53 ، 54 ، 60
 6I ، 62 ، 65 ، 90 ، 9I ، 92 ، 93 ، 94 ، 95 ، 96 ، 97 ، 98 ، 99 ، I00
 I0I ، I02 ، I03 ، I04 ، I05 ، I06 ، I09 ، III ، I17
- أبو مروان الفحصبلي
 95 ، 94
- ابن مزين
 I15
- الملاوي = يوسف بن يعقوب البويوسف
 ملك المغرب هو أبو عنان (747 هـ) ، 9
- منصور بن أحمد المشدالي ، ناصر الدين ، أبو علي
 54 ، 53
- منصور الملياني ، أبو علي
 37
- ابن مصباح آكراس
 84
- مصباح بن شعيب الصنهاجي يشو ، أبو هادي
 52 ، 5I ، 50 ، 49
- أبو المعالي ، امام الحرمين = عبد المالك بن أبي محمد الجويني
 معروف الكرخي
 93 ، 43
- أبو مسعود بن عريف = ابن عريف
- موسى
 I0I ، I00
- أبو موسى الجزولي النحوي
 93
- موسى ، أبو عمران الحلاج
 39 ، 38

موسى بن محمد بن معطي أبو عمران = العبدوسي

38 ، 7 موسى بن عمران ، الرسول
93 أبو موسى القروي
101 موسى الهروي ، أبو عمران
22 ميمون التاروطي

- ن -

108 ، 107 ابن النحوي
-----------	------------------

- ص -

91 ابن صالح
66 ، 65 ، 64 ، 63 ، 62 ، 61 ، 51 ، 35 ، 23 صالح الهسكوري
64 الصنهاجيون
	الصغير = أبو الحسن علي المغربي

- ع -

5 عائشة أم المؤمنين
93 ابن عات
87 عامر بن محمد الهنتاتي
	ابن عاشر = احمد بن عاشر الاندلسي
79 ابن عباد
45 ، 44 أبو العباس ، ابن الأمراء الراشدين
70 أبو العباس الدكالي
26 أبو العباس ابن العريف
98 عبد الله ، خادم عبد العزيز بن ابي بكر
74 ، 67 عبد الله الاوربي ، ابو محمد

- 93 عبد الله بن برطلة ، ابو محمد
- 90 عبد الله بن ماكسن الصنهاجي
- 91 ، 87 عبد الله الصنهاجي الزرهوني ، ابو محمد
- 22 ، 21 عبد الله بن وكريس المشنزائي ، أبو ينور
- 78 عبد الله الونغيلى ابو محمد
- 69 أبو عبد الله ، اخو عبد الرحمن الهزميري ، ابو زيد
- 68 ، 67 ابو عبد الله البقوري
- 94 ، 51 أبو عبد الله البوني
- 91 30 ، 29 أبو عبد الله التاودي
- أبو عبد الله بن تيجلات = ابن تيجلات
- أبو عبد الله الدقاق = الدقاق
- 68 ، 67 ابو عبد الله الكومي
- 93 أبو عبد الله محمد
- 35 ، 16 أبو عبد الله محمد الحاتمي ابن العربي
- 53 ابو عبد الله المغربي
- 80 أبو عبد الله المقرئ
- 8 أبو عبد الله الفخار صاحب القاضي عياض
- 33 عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الانصاري القصري
- 101 عبد الحق بن ربيع الانصاري البجائي
- 35 ، 34 عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي ، ابو محمد
- عبد الحق بن سبعين ، ابو محمد = ابن سبعين
- 100 عبد الخالق التونسي
- 68 عبد الرحمن اللجائي ، ابو زيد
- 26 عبد الرحمن بن عفان الجزولي ، ابو زيد
- 67 عبد الرحمن القيسي ، ابو زيد ، يعرف بطالب عافية
- 31 عبد الرحمن الهزميري ، ابو تميم

- عبد الرحمن الهزميري ، ابو زيد 66 ، 67 ، 68 ، 69 ، 70
- عبد الرحمن بن يوسف الحسنى 8
- عبد الرزاق الجزولى ، ابو محمد 35 ، 36 ، 6I ، 62
- ابن عبد الرفيع ، ابو اسحاق 93
- ابن عبد الكريم ، ابو الحسن 3I
- عبد المالك بن ابي محمد بن يوسف الجوينى امام الحرمين
- أبو المعالى 43 ، 93
- عبد المؤمن 102
- عبد المؤمن ابو لقمان 5I
- عبد العزيز ، السلطان ابن السلطان ابي الحسن المرينى 74 ، 84
- عبد العزيز بن ابي بكر ، ابو محمد 96 ، 97 ، 98 ، 99
- عبد العزيز التونسي 106 ، 107
- عبد العزيز الصنهاجى 84
- عبد العزيز القروى ، ابو محمد 24
- عبد الغنى ، الحاج 84
- عبد السلام التونسي ، ابو محمد 106 ، 107 ، 108
- ابن عبد السلام ، عز الدين 2
- عبد الواحد الصنهاجى 86
- العبدوسى 6 ، 24 ، 25 ، 79
- عثمان بن عفان 5
- ابن العربى = أبو بكر ، القاضى
- ابن العربى محيى الدين = أبو عبد الله محمد الحاتمى
- ابن عريف ، أبو مسعود 40 ، 4I ، 42
- ابن العريف = أبو العباس ابن العريف
- العزفى 25
- عزيزة السكسوية 86

- 79 ابن عطاء الله ، صاحب الحكم
- 3I علي بن ابراهيم الصنهاجي ، أبو الحسن
- 84 علي بن أيوب ، أبو الحسن
علي ، أبو الحسن = الششتري
- 93 ، 43 ، 5 ، 4 علي بن أبي طالب
- 77 ، 76 علي اللجائي ، أبو الحسن
- 49 ، 48 علي بن محمد بن يوسف الانصاري الاندلسي السراج ، أبو الحسن
- 60 علي المغربي المدعو بالمظلوم
- 66 ، 65 علي بن عبد الله بن موسى بن أبي زكرياء ، أبو الحسن
- 8I علي بن عبد الوهاب ، أبو الحسن
- 26 ، 14 علي ابن غالب ، ابو الحسن
- 22 علي بن يوسف بن تاشفين
- 78 ، 77 أبو علي الرجراجي
- 35 ، 34 ابو علي المسيلي
- 98 ، 97 أبو علي النفطي
- 104 عمر الحباك التلمساني ، أبو علي
- 45 ، 2 عمر بن الخطاب
- 38 عمر الصباغ ، أبو علي
- 84 عمر بن عبد الله بن علي البياني
- 48 عمر بن علي السعدي المعروف بابن الفارض ، أبو القاسم
- 73 ابن عمر ، أبو الحجاج
- 4I ابن عمر ، أبو عبد الرحمن الحاجب
- 4 عمران بن حصين الصحابي
ابو عمرو ابن الحاجب = ابن الحاجب
- 106 أبو عمران الفاسي
- 94 ، 28 ، 27 ابن عوف ، أبو الطاهر

8 عياض القاضي
80 عيسى المسيح

- غ -

	ابن غالب = علي ، أبو الحسن
108 ، 95 ، 93 ، 80 ، 43 ، 42 ، 16 ، 13 الغزالي ، أبو حامد
66 الغماتيون
69 الغماري
55 غيلان

- ف -

	ابن الفارض = عمر بن علي السعدي .
86 فاطمة
91 فاطمة الأندلسية
	أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف = ابن النحوي

- ق -

112 ، III ابن القاسم
65 أبو القاسم البكري
81 أبو القاسم التلمساني
	أبو القاسم الجنيد = الجنيد
43 أبو القاسم الزموري
28 قاسم القرطبي ، أبو الفضل
43 أبو القاسم القشيري
78 ، 68 القرافي
	ابن قنفذ = أبو العباس أحمد بن الخطيب
84 القصار

- س -

4	سارية الصحابي
98 ، 97	سالم التباسي
9 ، 8 ، 7	السبتي ، ابو العباس
49	ابن سبعين
93 ، 43	سري السقطي
87	السكسوي
6	سلمان الفارسي
43	ام سلمة ، زوج النبي
74	سليمان ادي العيون
42	السمعاني
65	ابو سعيد
74	ابو السعيد السلطان
109	سعيد بن جبير

- ش -

90 ، 38	شعيب ، عليه السلام
		ابو شعيب آزمور = أيوب بن سعيد السارية
		شعيب بن حسين الانصاري الاندلسي = أبو مدين
88	شعيب بن عبد الله الصنهاجي
64	الشعيبون
49	الششتري

- ه -

97	ابن هداس
89	أبو هريرة

- ي -

- اليحمدي 24
- أبو يحيى أبو بكر 5I ، 40
- يحيى بن صالح ، خديم الشيخ أبي يعزى 33
- يحيى بن أبي علي الزواوي ، أبو زكرياء 28 ، 27
- يحيى بن أبي عمرو بن عبد العزيز الحاحي ابو زكرياء 52
- يحيى بن أبي عمرو بن عبد العزيز بن عبد الله بن يحيى الحاحي ،
أبو زكرياء 66 ، 65 ، 64
- يحيى الغماتي ، أبو زكرياء 70
- يخلف الأوربي ، أبو خزر 23
- ابن يخلف ، أبو بكر IO7
- يعزى ، أبو علي 29
- أبو يعزى 29 ، 25 ، 23 ، 22 ، 2I ، I6 ، I5 ، 4
64 ، 36 ، 33 ، 32 ، 30
- يعقوب بن عمران البويوسفي 57 ، 4I ، 40
- أبو يعقوب المريني 70
- يسكر بن موسى ، أبو محمد 23
- يشو = مصباح بن شعيب ، أبو هادي
- ابن يوسف ، أبو الحسن الصنهاجي 72
- يوسف بن محمد بن يوسف ابن النحوي IO8 ، IO7
- يوسف بن يعقوب البويوسفي ، أبو يعقوب 56 ، 55 ، 45 ، 42
94 ، 59 ، 57

في ذكر أسماء الأماكن

باب القنطرة (من ابواب قسنطينة)
46 ، 45

بابل ، 53

بجاية ، 16 ، 27 ، 28 ، 34 ، 36 ، 37 ،
38 ، 47 ، 53 ، 60 ، 63 ، 92 ، 94 ،

101 ، 102 ، 97

البحر المحيط ، 71 ، 72

برقة ، 49

بغداد ، 100

بونة ، 95

بيت المقدس ، 100

- ت -

تادلا ، 26

تانشناشت ، 65

تاغية ، 26 ، 32

تلمسان ، 40 ، 49 ، 53 ، 70 ، 82 ،

93 ، 94 ، 102 ، 103 ، 104 ،

105 ، 107 ، 108

تليك ، 40

تونس ، 44 ، 49 ، 68 ، 93 ، 104 ،

116

- 1 -

آدقي ، 65

آزمور ، 22 ، 42 ، 64 ،

آغمات ، 22 ، 69 ، 70 ، 106 ، 107 ،

آسفي ، 35 ، 61 ، 63 ، 104 ،

أجواد ، 26

أنجاد ، 26

الاندلس ، 14 ، 76 ، 106 ،

اعجل ، 61

افريقية ، 16 ، 49 ، 50 ، 51 ، 52 ، 63 ،

الاسكندرية ، 28 ، 31 ، 36 ، 61 ،

اشبيلية ، 11

- ب -

باب آمسيون (من ابواب بجاية) 34

باب المرسي (من ابواب بجاية) ، 34

باب الفتوح (من ابواب فاس) ، 13 ،

66

تيطنظطر ، 2I ، 64 ، 7I

تيغزا ، 64

- ج -

الجامع الاعظم (بقصبة قسنطينة) ،
44

جامع الزيتونة (بتونس) ، 49

جامع الصابرين (بفاس) ، 66 ، 70

جامع القرويين (بفاس) ، 73 ، 74

جماعة الاندلس (بمراكش) ، 12

- ح -

الحجاز ، 46 ، 88

الحرم الشريف ، 50

حومة اللولة ، (ببجاية) 10I

- د -

درن ، جبل ، 64 ، 86

دمياط ، 49

- ر -

رابطة التونسي ، 106 ، 108

رابطة الزيات ، 37

رباط آسفي ، 62

روضة الانوار ، 66 ، 69

- ط -

طرابلس ، 49

طنجة ، 12

طوس ، 42 ، 43

- م -

مدرسة الوادي (بفاس) ، 78

المدينة ، 49

مراكش ، 7 ، 8 ، 9 ، 12 ، 20 ، 25 ،

5I ، 64 ، 65 ، 66 ، 67 ، 68 ،

69 ، 70 ، 87 ، 102

مكة ، 48 ، 49 ، 9I ، 93 ، 100

مكناسة الزيتون ، 3I

ملارة ، 46 ، 48 ، 5I ، 52 ، 54

المنحنى ، 26

المنستير ، 97

مصر ، بمعنى القاهرة ، 28

المغرب ، 3 ، 9 ، 38 ، 42 ، 49 ، 62 ،

64 ، 68 ، 73 ، 76 ، 84 ، 85 ،

104 ، 105 ، III

المغرب الاقصى ، 63 ، 7I ، 73 ، 76 ،

مغيلة ، 42

مسجد ابي زكرياء الزواوي (بحومة

اللولة من بجاية) ، 10I

مسجد المنزل ، 82

المشرق ، 49

المهدية ، 97

- ص -

صفرو ، 85

القاهرة ، (موضع من جبال درن) ، 86

قلعة بني حماد ، 92 ، 108

القصر ، 91

قسطنطينة ، 2 ، 40 ، 44 ، 45 ، 46 ،

49 ، 50 ، 51 ، 52 ، 61 ، 93 ، 105

القيروان ، 106

- س -

سبته ، 8 ، 9 ، 12 ، 32 ، 76

سجلماسة ، 27

سلا ، 7 ، 10 ، 82 ، 83

- ش -

الشام بمعنى دمشق ، 13

شلف (جبال) ، 40

- و -

وجه الكدية (خارج قسنطينة) ، 49

- ي -

يليسكاون ، 22

يسر ، 103

- ع -

العباد ، 82 ، 93 ، 102 ، 103 ، 104 ،

106 ، 107 ، 108

العدوة ، 12 ، 15

عدوة الاندلس (بفاس) ، 23 ، 78

عدوة القرويين (بفاس) ، 23

العراق ، 71

العلاني (موضع في ناحية سلا) ، 82

العناب (بلد) ، 94

- ف -

فاس ، 12 ، 13 ، 14 ، 15 ، 16 ، 22 ،

23 ، 24 ، 25 ، 26 ، 27 ، 30 ، 31 ،

32 ، 38 ، 42 ، 66 ، 67 ، 68 ، 70 ،

73 ، 75 ، 76 ، 77 ، 78 ، 79 ، 80 ،

85 ، 91 ، 108 ، 115

فاس الجديد ، 42

فاس القديم ، 42

فرجوية ، 45

- ق -

القاهرة ، 48

في ذكر الأمم والقبائل والعشائر

- م -	(آيت) محبوب ، 72 المصامدة ، 5I ، 82	- ا -	(بنو) آمغار ، 22 ، 64 الاعراب ، 46
- ص -	صنهاجة ، 20 ، 72 ، 86 ، 87	- ت -	(بنو) تمدد ، 86
- ع -	العرب ، 49	- ح -	حاحة ، 64 ، 82
- س -	سكسوية ، 86	- د -	دكالة ، 7I ، 75
		- ر -	الروم ، 32

في اسماء الكتب المذكورة

التعريف بأبي الحسن علي ابن
حرزهم وذكر فضائله وعلمه
وكراماته ، 20

التعريف بالشيخ أبي مدين ، لابي
الصبر أيوب بن عبد الله الفهري
32

التقييد الكبير للمدونة ، جمعه
اليحمدي ، 24

تقييد المدونة ، جمع عبد العزيز
القروي ، 24

التهديب ، للبراذعي ، 25

- و -

رحلة أبي عبد الله محمد بن رشيد
السبتي ، ذكر فيها الفقيه عبد
الحق بن ربيع الانصاري
البجائي ، 101

الرعاية للمحاسبي ، 14

الرسالة ، لابن ابي زيد القيرواني
شرحها ، 23 ، 24

تدريسها ، 25

الرسالة ، للقشيري ، 17 ، 63

- ا -

الاحكام الكبرى والصغرى ، لابي
محمد عبد الحق بن عبد الرحمن
الاشبيلي ، 34

الاحياء ، للغزالي ، 13 ، 21 ، 75 ،
108 ، 76

اكمال المعلم لابي عبد الله البقوري ،
67

املاء علي بعض مختصر ابن الحاجب
في الفقه ، لابي عبد الله محمد
ابن يحيى الباهلي المسفر ، 54

الاصلان لابن الحاجب ، 78

اسرار الاسماء ، للبوني ، 51

- ب -

بداية الهداية ، للغزالي ، 63

- ت -

تأليف في الآداب الشريفة والاحاديث
السنية والنكت السنية والاحكام
العلمية للخطيب حسن ابن الخطيب
علي والد ابن قنفذ ، 47

التذكرة (في اصول الدين) ، لابي علي
المسيلي ، 34

- ط -

الطالع السعيد في تاريخ السلطان
أبي سعيد ، 74

- ذ -

كتاب ابن الحاجب في الفروع
والاصول ، 78

كتاب الحلال والحرام ، للفقير راشد
ابن ابي راشد الوليدي 23

كتاب الحوفي في الفرائض ، 77

كرامات أبي يعزى للعزفي ، 25

- م -

المختصر لابن الحاجب ، 68

المدونة ، 25

منتخب الذيل للسمعاني ، 42 ، 43

منهاج العابدين للغزالي ، 39

المقصد الاسنى في شرح اسماء الله
الحسنى ، للغزالي ، 63 ، 92

مواقع النجوم لابن العربي ، 35

- ن -

نظم فرائد الجواهر في معجزات سيد
الاولئ والواخر ، لمحمد بن يحيى
الباهلي المسفر ، 54

نظم السلوك ، قصيدة لابن الفارض ،
48 ،

- ع -

العاقبة (في التذكير لأبي محمد
عبد الحق الاشبيلي ، 34

العمدة (في الحديث) ، 9

عنوان الدراية ، لأبي العباس احمد
ابن احمد الغبريني البجائي ، 62

العقيدة ، للجبراني ، 63

- ف -

فرائض الصلاة للصقلي ، 63

الفصيح ، لشعلب ، 53

- ق -

القواعد ، للشيخ عز الدين
ابن عبد السلام ، 2

- س -

السنن ، للترمذي ، 26

- ش -

شرح على أسماء الله الحسنى ،
للمسفر الباهلي ، 54

شرح الحكم ، لابن عباد الرندي ، 79

شرح الرسالة المنسوب لابني زيد
عبد الرحمن بن عفان الجزولي ، 78

شرح رسالة القيرواني (ينسب لابني
محمد صالح الهسكوري) ، 23

شرح المدونة لابني الحسن الصغير
المغربي ، 53

شرح المعالم الدينية ، لابني علي
ابن الحسن البجائي ، 47

	- الهزج -	32	التلاقي
59	غنى		
	- السريع -		
II	ناصرح	27	الاحرار
	- المتقارب -	58	كبير
59	وصفها	55	اماله
	- المتدارك -	8	يترنم
107	بالبلج	63	محزون
		94	الأوفق
		27	الناس
		102	لها
		II	متتاليه

trouvera un certain nombre de tournures et de vocables vulgaires ou vulgarisants. Citons : دالية (8) (vigne); مخايد (9) au lieu de مخاد (oreillers); صابة (10) (moisson).

Le mot بئر (11) (puits) est traité comme étant du genre masculin; كساء (12), au contraire, qui est du genre masculin en classique est traité comme un féminin.

On notera :

(13) ... ستة أشهر نروم غسلها وما وجدت سبيلا ...

(14) ... لي أربعون سنة تقرىء المدونة ...

(15) ... من حين ناديتني وأنا ننتظرك

(16) ... وأعطني سرجك نركب بها

Remarquons toutefois que ces formes de la conjugaison de l'arabe dialectal n'apparaissent sous la plume de l'auteur que lorsqu'il rapporte les propos d'une personne qui parle.

(8) *Uns*, p. 8.

(9) *Uns*, p. 68.

(10) *Uns*, p. 25.

(11) *Uns*, p. 86.

(12) *Uns*, p. 24.

(13) *Uns*, p. 24.

(14) *Uns*, p. 24.

(15) *Uns*, p. 46.

(16) *Uns*, p. 51.

4° Le manuscrit de la Bibliothèque de la Qarawiyine dont nous avons pu avoir une photocopie n'est pas daté. Il est loin d'être aussi ancien que le D 524. Mais avec son écriture ronde, régulière, il présente l'avantage d'être d'une lecture facile et reposante. Il comporte 24 feuillets de 26 × 20 cm. Il est désigné par le sigle ق.

5° Le dernier des cinq manuscrits, que nous avons affecté du sigle ف, appartient à la bibliothèque personnelle de Monsieur Mohammed el-Fasī, recteur de l'Université de Rabat. C'est une copie fidèle du précédent.

Les numéros 3, 4 et 5 présentent très souvent les mêmes lectures et les mêmes fautes de copiste.

Notre travail était achevé et en cours d'impression, lorsque nous eûmes l'occasion d'avoir en main quatre autres copies du *Uns* ; deux provenant de la bibliothèque de l'ancien pacha de Marrakech, Madani el-Glaoui (n^{os} 597 et 857) ; et deux autres, de celle d'Abd el-Hayy el-Kattani (n^{os} 2305 et 2666) mais qui, malheureusement, n'étaient pas plus anciennes que celles sur lesquelles nous nous sommes appuyés pour établir notre texte. Le n^o 2305, le seul daté, est de safar 1338/1919-1920.

Les numéros 2666 et 857 se rattachent au groupe ق، ف، رب ; les deux autres, 597 et 2305, au groupe ک، را.

Ces neuf manuscrits ne présentent pas de différence essentielles de lecture. Une bonne copie ancienne nous aurait, peut-être permis d'élucider certains passages du texte qui nous sont demeurés obscurs.

IV. LA LANGUE

« Ibn Qunfud, note Ben Cheneb, dans son article sur la *Fârisiya*, écrit très simplement et se rapproche parfois de la langue parlée à Constantine. » (7). Cette remarque vaut pour le *Uns*. On y

(7) « Hespéris », T. VIII, 1928, p. 40.

III. LES MANUSCRITS

Pour établir ce texte nous nous sommes servis de cinq manuscrits.

1° Le premier d'entre eux, répertorié sous le numéro D 524, et qui appartient à la Bibliothèque générale de Rabat, est la plus ancienne copie que nous ayons pu nous procurer. Elle est, selon Lévi-Provençal, du XVIII^e siècle. Mais nous n'avons pu y lire aucune date.

Elle comprend 21 feuillets de 29, 31 ou 33 lignes, de 26 × 20 cm, tous attaqués et rongés par les souris sur les bords extérieurs. Des parties du texte en ont malheureusement souffert.

L'écriture de ce manuscrit est fine, mais très lisible. Les paragraphes sont indiqués avec soin et les vers, écrits d'abord à l'encre rouge, puis à l'encre noire, se détachent nettement du texte.

Nous l'avons désigné par le sigle ۱ .

2° Monsieur Colin, que nous remercions ici, a bien voulu mettre à notre disposition un second manuscrit qui, bien que s'étant révélé être de la même famille que le précédent, nous a été de la plus grande utilité.

Nous lui avons attribué le sigle ۲ .

3° Le troisième de ces manuscrits, daté du vendredi ۱3 safar de l'année ۱۲۲۷/۱۸۶۰-۱۸۶۱, le D ۱۴۹۸ dont le sigle est ۳ , répertorié au catalogue de MM. Allouche et Regragui (T. II, p. ۱۸۹), sous le numéro 2232, fait partie du fonds de la Bibliothèque générale de Rabat.

Il est inclus dans un recueil et va du feuillet ۱۲ v° au feuillet 49 v° ; dimension : 23 × 18 cm ; 25 lignes par feuillet.

Le texte est encadré de deux filets rouges, enveloppés d'un filet bleu.

L'écriture en est fine, penchée vers la droite, peu élégante.

Ce manuscrit est d'une famille différente des deux précédents.

dans le jabal Dern A Fès il pratique très longtemps Abū °Abd-allāh Muḥammad al-Janātī, continuateur de la tradition gazalienne du soufisme. Enfin en 769/1367-1368 il participe à un grand rassemblement des confréries marocaines entre Āsfī et Tīt.

Le récit de ces voyages, de ces pèlerinages aux tombeaux, de ces visites aux personnages en renom de l'époque constitue la partie originale du *Uns al-faqīr*.

Ce petit livre montre toute l'étendue de l'influence exercée sur le soufisme marocain par le grand saint enterré à al-°Ubbād. Il procure quelques détails sur les plus anciennes corporations marocaines connues. On voit, par lui, que l'apparition subite et la multiplication des *ṣaliḥ-s*, à l'époque almohade a porté ses fruits ; les grands saints de cette période de l'histoire marocaine sont, en effet, toujours honorés, ils font école et nourrissent la vie spirituelle de l'islam marocain au VIII^e siècle/XIV^e comme ils l'avaient fait au siècle précédent.

On ne sera guère surpris de constater qu'Ibn Mašīš († 625/1227-1228) qu'on donne comme un disciple direct d'Abū Madyan, a totalement échappé à l'attention d'Ibn Qunfuḍ.

En résumé, l'enquête d'Ibn Qunfuḍ, dont la rédaction s'est achevée en 787/1385-1386 à Constantine, se situe chronologiquement après le *Tašarwuf*, rédigé en 617/1220-1221 et le *Maqṣad* rédigé en 711/1311-1312. Ces trois ouvrages se rapportent à une période de l'histoire religieuse du Maroc qui s'étend de la dynastie almohade à celle des Mérinides. Ils ne touchent, bien entendu qu'un aspect limité de la question mais n'en présentent pas moins un intérêt certain du fait de leur ancienneté et de la rareté des sources dans le domaine de l'histoire du Maroc, pour la période pré-maraboutique.

Le *Maqṣad* ayant bénéficié d'une traduction en français et le *Tašarwuf* ayant été édité, nous avons pensé qu'en mettant à la disposition des chercheurs le texte du *Uns al-faqīr* nous compléterions utilement le travail de recherche inauguré autrefois par Michaux-Bellaire et M. Colin.

grande réputation et qu'il était considéré comme une autorité fondamentale.

Toutefois, en rapportant le récit du *Tašawwuf*, Ibn Qunfuḍ l'altère ou l'appauvrit (6). Ainsi, les détails biographiques concernant Abū Madyan qu'on pourra lire dans le *Uns* sont incontestablement démarqués du *Tašawwuf*. Mais ils ont été rétrécis, vidés d'une partie de leur substance. Et cela est très regrettable. On aurait aimé qu'Ibn Qunfuḍ donnât des détails supplémentaires qui vinssent enrichir le texte de Tādilī au lieu de le tronquer ou de le résumer.

Pour le reste, Ibn Qunfuḍ se conduit en enquêteur consciencieux. Il a vu de nombreux personnages et recueilli une grande quantité de témoignages. Au Maroc sa vie se consume en tournées longues et lointaines. Il est allé plusieurs fois à Fès au tombeau d'Abū-l-Ḥasan Ibn Ḥirzihim, à qui reviendrait le mérite d'avoir introduit au Maroc la doctrine soufique d'al-Ġazālī. Son premier pèlerinage au tombeau de ce saint se place en 759/1357-1358, l'année même de son arrivée au Maroc. En 761/1359-1360, en 772/1370-1371, en 776/1374-1375, il est à al-°Ubbād ; il se recueille auprès du tombeau d'Abū Madyan.

On peut le suivre dans ses pérégrinations à Salé (763/1361-1362), où il rencontre Ibn °Āšir. Cette même année, il se rend à Marrakech, au tombeau d'Abū-l-°Abbās al-Sabtī, patron des pauvres et des mendiants ; il visite la maison d'Ibn Tumart, chez les Hintāta ; le tombeau d'Abū Moḥammed Ṣāliḥ, fondateur du ribāṭ d'Āsfī, qui fut un haut-lieu de l'islamisation au Maroc ; il va aussi à Āġmāt, où sont enterrés quantité de ṣāliḥ-s, dont Abū Ishāq al-Tūnusī, Abū °Abdallāh al-Hazmīrī, l'un des maîtres d'Ibn al-Bannā'.

Pour ses autres pèlerinages il ne fournit pas de date. On le trouve à Āzemmūr, autre important foyer de soufisme et d'islamisation, auprès du tombeau d'Abū Šu°aib Ayyūb ; au ribāṭ de Tīt, chez les Banū Āmġār. Bien malgré lui il est empêché d'atteindre le tombeau d'Abū Ya°zā ; il pousse jusque chez les Saksāwa

(6) Comparer notamment le texte du *Tašawwuf* se rapportant à Kāṭima al-Andalusīya (331) avec celui du *Uns* concernant la même personne ; la notice biographique n° 251, consacrée à Abū Muḥammad °Abdallāh b. °Uṭmān, avec celui du *Uns* (91).

Abū Zaid °Abd er-Raḥmān al-Lujā'ī, quatrième disciple d'Ibn al-Bannā', qui devait lui-même son initiation mystique à Abū Zaid °Abd er-Raḥmān al-Hazmīrī, fondateur de la confrérie des *Ġamātiyyūn* (3). Rappelons qu'Ibn al-Bannā' a eu également comme premier disciple al-Abulī, l'un des maîtres d'Ibn Khaldoun. Le grand historien et Ibn Qunfuḍ se rattachent donc, tous les deux, par l'un de leurs maîtres à l'enseignement d'Ibn al-Bannā'. Un autre des maîtres d'Ibn Qunfuḍ est Ibn Marzūq, mort au Caire, auteur d'un commentaire sur la *°Umda fī furū° aš-šāfi'īya*.

A l'âge de dix-neuf ans, selon le *Nail* (4), Ibn Qunfuḍ se mit en route vers le Maroc. Il devait y séjourner environ dix-huit ans (5), c'est à cette occasion qu'il entreprit son enquête sur Abū Madyan et ses disciples, allant de ville en ville, sillonnant le pays, comme on le précisera ultérieurement. « J'ai vu quantité de tombeaux de saints, dit-il, de Tunis au Couchant et jusqu'à l'extrême limite de la ville de Safi. » Dans le *Uns* il ne fournit aucun détail sur ses autres activités. On apprend tout à fait incidemment qu'en 769/1367-1368, il était investi des fonctions de cadi, à l'époque où il assistait, dans les Doukkala, à un rassemblement de *fuqarā'*.

En l'année 777 ou 778/1375-1376, jugeant probablement qu'il avait terminé sa mission au Maroc, Ibn Qunfuḍ retourne vers sa terre natale l'Ifriqiya. Il est chargé, à Constantine, de diverses fonctions : ḥaṭīb, muftī, cadi. Il meurt en 809 ou 810/1406-1407.

II. L'OUVRAGE

Ibn Qunfuḍ connaissait bien le *Tašarwuf* ; il le cite et le met très souvent à contribution. On pourra juger à la soixantaine de renvois à cet ouvrage qui figurent dans les notes de cette édition du *Uns* qu'une bonne partie des renseignements relatifs à des personnages qui ont gravité autour d'Abū Madyan ou qui lui doivent leur initiation soufique a été empruntée à l'hagiographe marocain. Ce qui prouve que le livre de Tādilī jouissait alors d'une

(3) *Uns*, p. 66.

(4) *Nail*, p. 57.

(5) Pour la durée de ce séjour, v. « Hespéris », T. VIII, année 1928, p. 38.

INTRODUCTION

I. L'AUTEUR

Contemporain d'Ibn Khaldoun, Ibn Qunfuḍ est né vers 740/1339-1340, à Constantine, et mort en 810/1407-1408. La plus grande partie de sa vie s'est écoulée à l'époque de la décadence mérinide. Son nom complet est Abū-l-°Abbās Aḥmad b. Ḥasan b. °Alī Ibn al-Ḥaṭīb al-Qusanṭīnī. On le connaît plus particulièrement sous le nom d'Ibn Qunfuḍ (1).

Il appartient à une famille de lettrés. Son grand-père maternel Yūsuf al-Malārī († 764/1362-1363) était un soufi de l'école d'Abū Madyan. Son père, le ḥaṭīb Ḥasan, fils du ḥaṭīb °Alī était un lettré initié au soufisme et qui se réclamait lui aussi de la doctrine du même maître.

L'auteur du *Uns* avait une formation très complète de savant médiéval. Il était juriste, traditionniste, grammairien, logicien, mathématicien, astronome, historien.

Aḥmad Bābā donne, dans son *Nail al-ibtihāj* (2), la liste des maîtres d'Ibn Qunfuḍ. Quatre de ceux-ci sont cités dans le *Uns*. L'un d'eux, le plus célèbre (avec Lisān ed-Dīn Ibn al-Ḥaṭīb), est

(1) Sur Ibn Qunfuḍ, sa vie et son œuvre, v. Lévi-Provençal, *Les manuscrits arabes de Rabat*, Paris, 1921, pp. 132-134.

E. Lévi-Provençal renvoie à Aḥmad Bābā, *Nail al-ibtihāj*, p. 57 ; Ibn al-Qāḍī, *Jadwat-al-Iqtibās*, p. 79 ; al-Qāḍirī, *Naṣr al-maṭānī*, I, 4 (V. trad. du passage dans *Archives Marocaines*, vol. XXI, Nachr al-Mathānī de Mouhammad al-Qāḍirī, Trad. de A. Graulle et P. Maillard, Paris, 1913, p. 11) ; Brockelmann, *Geschichte*, II, p. 241, 6, 3 ; R. Basset, *Recherches bibliographiques sur les sources de la Salouat el-Anfās*, dans recueil de Mémoires et de Textes publiés en l'honneur du XIV^e Congrès des Orientalistes, Alger, 1905, pp. 13-14, n^{os} 20-21.

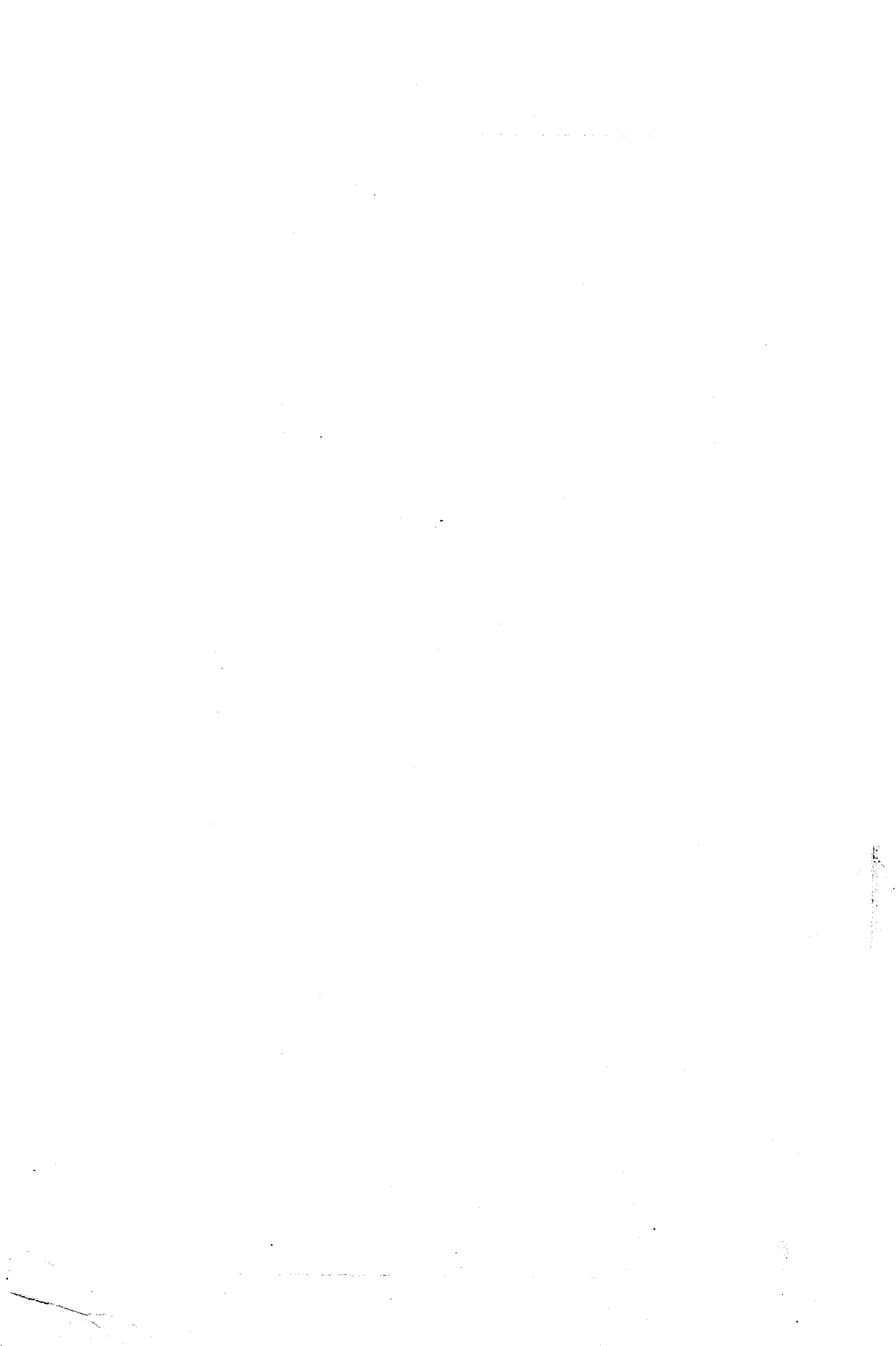
On pourra également se reporter à Ibn Maryam, *Al-Bustān*, pp. 308-309 (V. la traduction française de F. Provenzali, *El Bostan ou jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen*, Alger, 1910, p. 341) ; Ben Cheneb, *La Fārisiya ou les débuts de la dynastie ḥaṣside par Ibn Qunfuḍ de Constantine*, « Hespéris », T. VIII, 1928, 1^{er} trimestre, pp. 37-39 ; H.P.J. Renaud, *Ibn al-Bannā' de Marrakech, ṣūfī et mathématicien* (XIII^e XIV^e s. J.C.), « Hespéris », T. XXV, 1938, p. 13.

(2) *Nail*, p. 57.

© 1965 — CENTRE UNIVERSITAIRE DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE — RABAT

Tous droits de traduction, de reproduction et d'adaptation réservés pour tous pays.

DÉPÔT LÉGAL : 148/65 — IMPRIMERIE DE L'AGDAL, RABAT



UNIVERSITÉ MOHAMMED V
CENTRE UNIVERSITAIRE DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

PUBLICATIONS DE LA FACULTÉ DES LETTRES

RIHLĀT II — ZIYARĀT I

ABŪ-L-[°]ABBĀS AḤMAD B. ḤASAN B. [°]ALĪ B. AL-ḤAṬĪB

IBN QUNFUD

(† 810 = 1407, 1408)

UNS AL-FAQĪR
WA [°]IZZ AL-ḤAQĪR

ENQUÊTE SUR LA VIE, LES MAÎTRES ET LES DISCIPLES
DE SĪDĪ BŪ MĀDIAN
ET VOYAGES À TRĀVERS LE MAROC

CONTRIBUTION
À L'ÉTUDE DE L'HISTOIRE RELIGIEUSE
DU MAROC

TEXTE ARABE ÉTABLI ET PUBLIÉ

PAR

MOHAMMED EL FASI

ADOLPHE FAURE

EDITIONS TECHNIQUES NORD-AFRICAINES

22, rue du Béarn

R A B A T

1965